بسم الله لرحمن الرحيم

فراشات مكة...دعوها تحلق..

بقلم: زبيدة هرماس

الإيداع القانوني: 2009MO0874
طوب بريس – الرباط
www.toppress.ma

لوحة الغلاف : زبيدة هرماس

تقديم

القضية

هل هي قضية المرأة وحدها هي التي تعرضها رواية فراشات مكة؟ أم هي قضية إنسان كامل فتك الشر والجهالة بنصفه،فيما نصفه

الثاني يفلت من الوأد كي يطمر في العسف. وبين الوأد والعسف مسافة كاملة لتجريب الجهالة والوحشية،طولا وعرضا ،وسمكا... وما من شيء مثل هذه الرواية يرفع نبض القارئ،ويلهب حمية الإنسان فيه كي يرضى عن هذا الشكل الأدبي،الذي هو فيزياء العلاقات الإنسانية ووسيلتنا المفضلة لقياس الحركة حيث ينبغي وسكون الروح أو السكينة حيث تجب.

لقد نجحت الكاتبة في استراتيجيتها السردية،وهي تنضم هذا الكم من المتواليات السردية كي يتدفق عبرها نسيج من المحكيات الصغرى لأبطال مزيفين خلعهم الحكي ،لكي يتوج البطولة بضمير المؤنث عبر النشيج الدلالي.ويشرف على الحكي سارد خارجي غير مشارك،لكنه يتحول عبر تقنيات السرد الشفاف إلى شخصية حاضرة لترتيب النسق السردي،من خلال سرد شفاف يكون قريبا من دواخل الشخوص حتى وهو مسرود برانيا،لكنه يسمح بين الفينة والأخرى لتحرير الخطاب السردي من سلطة السارد كي تفرج الشخوص عن دواخلها الملتهبة بنار العربدة بالمصائر،كما رسمها جنون المتورين من أسياد بلا سيادة ومجونهم ،وكما رسمتها مشيئة جامدة لحجارة نحتتها الإرادات الموءودة...وأرادتها حفلا مخزيا للجمادات المنتصبة،توزع أنخابه في حلل من الجماجم،قبل أن تسرج خيولها كي تثير نقع الخواء والتلف والجهالة.

إنها حلقة مفرغة رسمت خطوطها نصيا وفق تدبير سردي أحكم صوغه ملحميا،كي يبين أن الحمية السوداء التي أشعلت الأرض نارا في حاجة إلى ماء زلال يبرد هذا الجموح الصادي،ويسكن اللوعة العطشى إلى السكينة وسلام الروح.

إنها رواية تضيف جديدا إلى ساحة الإبداع العربي،وهي تنقل القارئ إلى أجواء الجاهلية،كما فعلت كتب الملاحم والسير،لكنها تفعل ذلك بنوع من الكفاءة التخييلية،حيث يصير الممكن رديفا للكائن ومحتمل الوقوع واقعا يقره عقل القارئ وقلبه.فالكاتبة لملمت تلك اللحظات الصغرى والشذرات التائهة لترسم بها سيرا ملحمية تارة للطيش الأكبر كما مثله "فاتك" أو ملحمة للبر الأطهر كما رسمت قسماته "مريم" و

أبوها "جرجيس" وكلاهما ينثر رذاذ البشائر،في انتظار الغيث المحمدي.

ومثلما فعلت السير والملاحم العربية،مثل "عنترة بن شداد" و "سيف ين ذي يزن" وهي تقدم البطولات الملحمية تطهر الأرض من الشر الأصغر،تمهيدا لظهور النبي الخاتم ورسالته الكاملة ليشرق نورها بالخير الأكبر،كذلك فعلت "فراشات مكة" وهي تختار بطلتها امرأة عزيزة تقاوم الوأد،بل هي الأخرى تستظهر شيئا من "سيرة ذات الهمة" الملحمية،لتقاوم أشكالا أخرى من وأد الخير والرحمة والتعاون والعدالة...

عبد السلام أقلمون
د. ناقد أدبي

فراشات مكة...دعوها تحلق..

-ناولي فرسي ماء من البئر...هيا... لاأريده من سقاء العبيد.
-هاهو ذا يامولاي.
-ماهذه الزرقة على يدك؟
-فرسك يا مولاي، كنت... أناوله ماء ليشرب فدهسني بحافره الأيسر.
-ليته دهس بطنك هذا... ليته دهس هذه التي بداخله، اغربي عن وجهي الآن، أشعر أنك ستضعين أنثى.

خطت قليلا الى الوراء، ثم انسلت من المكان فناداها قائلا:
-أتعلمين ماذا سأفعل بك ان أنت وضعت أنثى؟ تذكري جيدا أنني سأرضعك دمها... هه...أتسمعين؟ لا أريد مزيدا من المهانة وسط عشيرتي، لا أرى وجهك الآن، انصرفي.. هم.. هم.. تعالي.. متى ستضعين هذا الشر؟
-لا.. لا.. لا أعلم يا مولاي.

سكت برهة وهو يحرك شفتيه يمنة ويسرة ثم قال:
-لا أحب أن تخرجي لخدمة الفرس بعد اليوم، سآمر تلك الشوهاء بفعل ذلك، أما أنت فستمكثين في الركن الخلفي لهذه الخيمة حتى أتحقق من شأنك.

ازدادت انحناء فهيدة وهي تهم بالتوضيح قائلة:
-سيدي.. أ.. أ..
-أفصحي، هيا.. أفصحي.. ماذا وراءك؟
تلعثمت ثانية، ووضعت يدها المشققة على فمها وهي تحاول جمع أصابعها الخشنة وقالت في ذعر:
-لقد باع ابنك الشوهاء هذا الصباح!
جلس فجأة، ثم أخذ يصرخ بأعلى صوته، ورمى بسوط كان معلقا خلفه حتى اهتزت أركان الخيمة وقال:
-باعها؟ كيف... كيف يتصرف هذا الأرعن بهذا الشكل؟ كيف؟... يا للآلهة ! لقد ورثتها عن أبي هي والمتاع، ثم.. ثم يقوم ببيعها؟ ومن غير اذني؟ كيف حدث ذلك؟...
تشجعت فهيدة قليلا وقالت بصوت خافت وهي تزداد انحناءة:

-لو رأيتها يا مولاي كم كانت تبكي.. تبكي لأنها أحبت المقام في دياركم ولا تريد أن ترحل...وأحبت مولاتي الفارعة أم الأكابر وأم الأسود.

نظر إليها غاضبا وقال:
-تبكين؟... تتحدثين الى عن دموع العبيد؟... أنت أيضا أيتها الحقيرة !... تزفين الي خبرا كهذا في يومي الذي باركته الآلهة؟ الي بسيفي وفرسي واغربي عن وجهي حالا.

هرولت فهيدة مغادرة المكان وفرائصها ترتعش، أما فاتك سيدها وزعيم قبيلتها فقد اشتد به الغضب، وحمل اناء به ماء بارد، وأفرغه كله على عمامته، ثم تقلدها والغضب يتلاعب بأنامله، غطى وجهه منتقبا بأطرافها اتقاء حر الصحراء ورمالها الخشنة وهو يتجه نحو الفرس داعيا الآلهة أن تصحبه.
شعرت فهيدة بخوف شديد يتملكها، سيما حين رأت فاتك يجذب الفرس من ذيلها قبل امتطائها، ووضعت يدها على بطنها وأخذت تتضرع الى الآلهة أن تجعل حملها ذكرا، فهي تعلم جيدا غضب فاتك، وترى في كل آن مدى اصراره على أن يكون المولود ذكرا، واذا لم يكن كذلك فستزداد ذلا وحقارة، انه الكابوس الذي تخشاه وتتجنبه، ولكنه جثم على صدرها منذ أن علقت برحمها المتبث على جدار الرق نطفة السيد الذي يمتلئ وجاهة وسيادة وكبرياء وسط قومه، شعرت بالدمع الساخن يهطل من مقلتيها كالمطر، كما أن التعب أخذ منها مأخذه، ورعاية السيد ونوقه وطحن طحينه وحمل أبنائه قد أجهدها أيضا، وأصبحت لا تقدر على جر حبل البئر العميق لسقي السادة وبهائمهم في آن واحد، فهي في شهورها الأخيرة، ووضعها الأول والثاني قد أنهكاها، ولا زالت تعاني من آلام فراق ابنتيها اللتين وضعتهما في حمليها حين وأدهما أبوهما وهما حيتان !...تصرخان تحت التراب الجاف المتكوم حول خيام العبيد، شعرت فهيدة أنها بحملها الثالث مقبلة لا محالة على كابوس مرعب،وأن الزوجات الأخريات سيشمتن بها إذا كان المولود أنثى كما فعلن من

قبل، تذكرت كيف كن يضحكن لبكائها، ويتقربن من فاتك سيدهن وسيد القبيلة الذي لا يقبل العار أبدا.

انسلت إلى خيمة السيد لتحمل الأقداح، فشرد بها تفكيرها المؤلم حتى خرت قدماها، وسقطت على جزء من فراشه دون أن تشعر، الفراش الذي لم يكن لأحد الحق في لمسه فضلا عن الاستلقاء عليه بتلك الطريقة، إلا إذا كانت إحدى زوجاته المحظوظات، أخذتها الذكرى بعيدا في مشوار المعاناة والألم، ولم يقطع عليها شرودها إلا عجوز العشيرة المحنكة التى دخلت مسرعة وهي تسأل عن السيد فاتك فقالت:

-فهيدة، ويحك يا امرأة! تجلسين على فراش السيد وأنت لم تلدي بعد ذكرا؟ أما تخافين أن يراك أحدهم؟... أين هي مولاتي؟

أفاقت فهيدة من شرودها فجأة وهي تعدل الفراش وتمسحه قبل أن تدركها الفارعة سيدة الزوجات، ثم قامت مسرعة وقالت:

-ماذا وراءك يا خالة؟

-ماذا ورائي؟ مكة يا فهيدة وما حولها تكتوى نارا من حر الشمس ونارا أخرى من حر الحرب وأوزارها...!

ردت فهيدة ببرود وهي تحاول مغادرة المكان قبل أن يراها أحد أبناء السيد أو زوجاته:

-وما شأن النساء بالحرب؟ نحن لسنا شيئا في هذه العشيرة أثناء السلم فكيف نتحدث عن الحرب؟

-أتيت لأخبر سيدك لا أنت أيتها الغبية، أين هو؟ جئته بخبر سمعته اليوم بنفسي في أسواقنا، أين هو؟..

-خرج للبحث عن الرجل الذي اشترى من ابنه الشوهاء.

صاحت العجوز متألمة :

-أوباعها؟...لقد كانت تأتيني بأخبار السيدة... أ.. أ...

-نعم.. نعم.. بيعت المسكينة بعد سنين من العشرة والخدمة دون أن يصدر منها خدش لكرامة السيد وذويه.

استدركت العجوز قائلة:
-لاريب أن الآلهة أخبرته بذلك، لا ريب أن الآلهة علمت منها ما لم نعلمه نحن...لاريب...

أمسكت فهيدة بيد العجوز النحيلة وأخذت تقبلها وتنحني لها وقالت في نبرة حزينة:
-أماه...هلا أخبرتني الآلهة أنا أيضا بما في بطني؟ بحق الآلهة ساعديني واجعليها تنطق بخير، أخشى.. أخشى أن يكون حملي أنثى مرة أخرى، آه.. لكم أخشى ذلك، سيذوب قلبي في صدري هذه المرة، ساعديني أرجوك، أرجوك!

نظرت إليها العجوز وهي تحاول ثنيها عن الاقتراب منها أكثر مما فعلت وقالت:
-سأساعدك، ولكن أمهليني الآن حتى أزف خبر الحرب الداخلية إلى سيدك.

قالت فهيدة وهي تضع كلتا يديها على رأسها:
-الحرب.. الحرب.. ما شأني أنا؟...أجيبيني... ما شأني بها... هذه الحرب لا تنتهي، الحرب الحقيقية هي التي أحملها أنا في عقلي وفي قلبي، ليتني أموت وأكون نسيا منسيا... أو ينزل هذا الحمل قبل أن أهان مرة أخرى.. آه.. ليتني أموت.
التفتت العجوز الى خارج الخيمة دون أن تعير أحاسيس فهيدة اهتماما، وهمهمت قليلا، ثم غادرت المكان دون أن تعتذر، فاذا صهيل خيل السيد فاتك يسبقها، نزل من على الفرس أمام خيامه وقد علا الغبار المكان، ثم تقدم وسيفه مدلى يتحدث عن ملحمة خاطفة حدثت للتو، كان ذبيبه ما زال يقطر دما وقال حين رأى العجوز المرتبكة:
-ماذا وراءك أنت أيضا؟ تهمين بشراء امرأة من امائي؟

شعرت العجوز بالخوف والذعر، ورأت أن حالة السيد لا توحي بأنه مستعد لاستقبال خبر كالذي تعزم على زفه اليه، فانكمشت على نفسها

وهمت بالانحناء كما تفعل عادة، أما فهيدة فقد ابتلعتها الأرض واختفت في الخيمة الخلفية.
ظل ساكتا وهو يرى خبرا آخر وراء ارتباكها ثم قال:
-هيا، قولي ما عندك يا وجه السوء.

تشجعت وقالت وهي ترجف:
-سيدي، سمعت أن ابنك باع الشوهاء.
-أجل، لا أدري كيف تجرأ حقير من عشيرتي واشتراها، ستعود الى البيت اليوم، أما هو فقد أخذ جزاءه، هه.. يتجرأ ويشتري أمة سيده !
-لترعاك الآلهة يا سيدي؟ قتلت من اشتراها من ابنك؟

نظر اليها شزرا وهو يزيح العرق عن جبينه وقال:
-قلت لك ما وراءك؟
-سيدي.. أ.. أ.. فقط سمعت خبرا في السوق حيث كنت أتجسس كما أمرتني عن..عن....

صاح وهو ينظف سيفه من بقايا الدم وقال:
-أسرعي بالخبر فسيفي مازال يلمع في يدي.
-أجل.. يا.. يا مولاي كانوا يتحدثون عن الحرب.

قاطعها مزمجرا:
-الحرب؟ الحرب؟ الويل والثبور... ومن هم هؤلاء؟
-سيدي... بنو رافع... بنو رافع يا مولاي بثلاثتهم... يهيجون الناس ويقولون إنهم سيعلنون عليك الحرب، آه.. حربا داخلية يا مولاي تأكلنا، يدعون أنك احتكرت قرابين الآلهة، كما أن ابنك البكر اشترى بعض صبيانهم ليدافعوا قسرا عن مراعيك، انهم ببساطة يا مولاي يشعرون أن كرامتهم قد أهدرت، هذا ما قالوا وما زالوا يرددونه بين الناس.

جلس على أريكة يغطيها جلد ظبي ناعم ورفع رأسه صوب الاله هنيهة ثم قال:
-اللعنة.. اللعنة... هل هذا كل ما لديك الآن؟
-أجل يا مولاي... هذا كل ما لدي...
-اخرجي من هنا الآن.. اخرجي.
حضرت زوجته الفارعة أم الأكابر حين سمعت صراخه وقالت وهي تنظر الى العجوز ساخطة:
-اخرجي من هنا يا عجوز السوء، تحرمين سيدك راحته.

نظر فاتك الى زوجته والغضب يتلاعب بتقاسيم وجهه وقال:
-أوقدي النار... واجعلي للآلهة بخورا تطيب بها، وفي مساء اليوم سأحضر اجتماعا بعلية قومي...نتدارس معا هذه المكيدة التى لا ريب دبرت بليل.

انصرفت العجوز وهي تتعجب من بطء بطشه على غير العادة، ولم تلحظ أنه كان متعبا كما ادعت السيدة، لقد قصد فراشه وأمر زوجاته بابعاد كل حركة عن المكان، فهو بحاجة الى أن ينام قليلا لكونه مطالب بالقيام على شؤون قبيلته المزروعة في أطراف مكة، والتي تتهددها حرب داخلية خطيرة بسبب معارضة بني رافع له وتأليبهم الناس عليه.

استرخى وهو يردد أبيات شعر مدحه بها أحد كبار شعراء عشيرته عن بأسه وشهامته، كان يحاول أن يبعث نشوتها في قلبه ليبدد الغضب والقلق اللذين يسيطران عليه، يتصور ناظمها وهو يقرضها أمام القوم، كلها وصف لفاتك بالبطولة والفحولة والقوة والكرم،النخوة والشهامة والجاه هم شغله الشاغل الذي يستطيع مداعبة ذهنه، خصوصا في مثل تلك اللحظات التي تضيق بها خواطره، الا أن تلك الأبيات طرقت مسمعه طرقا آخر ،وذكرته من جديد أنه سيد القبيلة الذي لا ينام ويترك شؤونها، فقفز من مكانه فجأة، ثم جلس وهو يمرر يده على صلعته ويحاول النظر من خلال الثقب العلوي للخيمة الى بياض الشمس اللافحة التي جعلت لحيته الكبيرة تعرق وتجعل عنقه الضخم كأنه واد من العرق، كانت عيناه الجاحظتان تحمران

ويتدلى من حولهما جلده الذي يظهر من تحت اللثام الناعم الذي يدثر به أحيانا وقت خلوده الى الراحة،لقد كان كل شئ من حوله ساكنا هامدا، اذ لا يوجد من يستطيع القيام بأدنى حركة أثناء خلوة فاتك التي يجبر الجميع على تقديسها، حتى الهه الصغير الى جانبه يحدق ـكالعادة-فيه دون حراك ولا كلام، عيناه عبارة عن لؤلؤتين صغيرتين استقدمهما أحد تجار مكة من الشام، وأهداهما لفاتك أثناء مصاهرة جمعتهما، أما يداه فكانتا مجموعتين الى صدره وهو يجلس القرفصاء، نظر اليه فاتك وهو يفتح عينا ويغمض أخرى، ثم قام من مكانه بسرعة فائقة، وحمله وحدق في عينيه المضمختين برائحة العطر الفاخر وقال هامسا:

-أيها الاله المقدس... أنت رفيق وفي، كل شئ يسكن من حولي ! حتى أنت؟...لا.. لا... لابد أن تخبرني عن هؤلاء الذين يريدون تدميري والمس بهبتي وكبريائي، أيرضيك أن تكون مكانتي وضيعة وانا سيد القبيلة الذي تحسب له العرب ألف حساب؟ راحتي وسكوني رهينة رأيك، كما أن.. كما أن بطشي رهين رأيك ايضا.

اقترب منه أكثر وأخذ يحذق في عينيه ويمسح به وجنتيه وقال هامسا:

-ألا ترى معي الى أي حد أعظمك وأستمسك برأيك؟

سكت قليلا كأنه ينتظر إجابة، ثم وضع وسادة الليف تحت قدميه ووسادة الوبر تحت رأسه واستلقى على ظهره دون حركة، بينما نام الاله الصغير على صدره وهو يمسك به، وعندما غالبه النوم واسترخت يداه سقط الاله على الأرض الرملية وكاد أن ينكسر.

-سيدي... الشمس أوشكت على الغروب.
-آه..يا أم الأسود، لم تركتني نائما حتى هذا الوقت المتأخر؟..
-معذرة يا مولاي، كاد شخيرك يحرك فسطاط الخيمة لشدة تعبك، سمر بالليل...وشؤون القبيلة بالنهار، أشفقت عليك.

نظر اليها غاضبا وهو ينتزع كبرياءه ويلعن الأعداء الذين شغلوه وقال:
-لا حاجة لي فيك ولا في شفقتك، ابتعدي عني قليلا، لقد سمعت أشعارا أنشدها ذؤيب امام القوم مازلت أجد حلاوتها في صدري، لا بد ان أتمثلها واكون قائد القوم الذي لا ينكسر، ومن لا ينكسر.. هه.. لا تجد شفقة الآخرين طريقها اليه.
-سيدي... معذرة...لقد تذوقتها اول ما أنشدت وما زلت أفخر بكوني زوجة السيد الملهم الباسل الذي لا يشق له غبار.

التفت اليها وهو يتفقد الهه الذي يكن له كل الحب والتقدير فبادرته قائلة:
-سيدي...لقد حملته حين سقط من على صدرك ووضعته في مكانه دون أن تشعر، لا يليق به أن يهان ويترك في مقام أقدامنا، هذا ابنك الصغير حنظلة أحضرته لينشدك بيتين من الشعر قلتهما فيك صباحا.

ضحك ضحكة ساخرة وهو يفرك عينيه الجاحضتين وقال:
-مالك وللشعر يا فارعة؟... أنت... تلدين لي الذكور الذين أتشرف بهم ويعلو شأني بين العرب، هذا ما أريده منك.

-انني أقرض شعرا متينا... ولكنكم... هه...رفضتم أن تجعلوا قصائدي مع معلقاتكم العظيمة... لأنني امرأة...سأعلقها هنا اذا أذنت يا مولاي.

نظر اليها بسخرية كبيرة وهي تدفع ابنها اليه وقالت:
-تقدم يا حنظلة وتمسح بالاله، وأسمع أباك سيد العرب.

أخذ الطفل يردد ما قرضته أمه من الشعر، بينما رحل ذهن فاتك نحو حرب بني رافع له والطريقة المثلى للقضاء عليهم.

ظل حنظلة يردد الأبيات، ويضع يده الصغيرة على قدم الاله المنصوب أمام والده الذي يفخر به لنباهته، فهو الابن المدلل لأم الكبراء التي أنجبت قبله أربعة من الذكور، وحظيت بشرف الحديث والاعتناء المباشر بوالده والدخول عليه لايقاظه، بينما انشغلت هي بتهذيب العمامة المضمخة بالعطر الهندي الخالص الذي اقتناه فاتك للتو من قافلة جاءت بسلع نادرة لا يشتريها الا الأسياد الذين تنتمي أم الكبراء الى طبقتهم، فقد نجت من الانتماء الى طبقة العبيد المهينة ،واستحقت الارتباط بفاتك ومداعبة عمامته ولمس عطر لا يراه أحد، ستبقى في الخيمة للخدمة الخاصة حتى يغادر، أما هو فأطل على الخارج ،ثم رفع رأسه الى السماء وقال:
-أمطرينا أيتها الآلهة حكمة وشرفا وعلوا، لكم أنا بحاجة اليك... هؤلاء الأوغاد، يعارضون مشيئتك.

وقف هنيهة، ثم عاد الى مكانه، وتناول كأس خمر، وقبض بيديه الكبيرتين على حبات بلح يتلاعب بهن، نثرهن فجأة وصفق بيديه صائحا:
-علي بفرسي الآن... الآن.
هتفت أم الأسود بصوت عال:
-الفرس !.. الفرس.
-هاهي ذي يا مولاتي أمامكما خارج الخيمة.
-تقدمي الآن أيتها الخادمة.

دخلت جارية صغيرة حافية القدمين وهي تمسك بقدح كبير كاد يسقط من بين يديها الصغيرتين، وضعته على مصطبة حجرية منقوشة، وتوجهت نحو الداخل قليلا، وأتت بأقداح صغيرة ثم رصتها بعناية وهي ترتعش.
دفعتها السيدة وبدأت تصب الكؤوس وتقطع بعض الفاكهة، بينما راح الولد يداعب الفرس ويجره نحو باب الخيمة.
لم تمر الا لحظات حتى خرج فاتك نحو بيت الأعيان ومعه كبار أبنائه وخيرة فرسانه.

دموع العبيد

بيت الأعيان مكان فسيح وسط الصحراء، تحيط به صخور سوداء تغطي المكان، وله ممر خاص مكسو بقطع من الأحجار شبيه بحواشي الممرات الرومانية القديمة، الى يمينه بناء مهمل يعلق فيه العبيد الذين لا يحسنون الخدمة والطاعة، بداخله قطع سلاسل حديدية وبقايا حيوانات وعظام بشرية تنزع عن المكان صفة الرحمة والرأفة، تتناثر على الجوانب بقايا بعض الأواني الخزفية التي توحي أن العبيد يعذبون لأجل كسرها خطئا أو تذمرا، أو أنها مستقر طعامهم حين يستضيفهم الأسياد للتعذيب في المكان، الحارس وحده من يقرر طريقة التأديب التى أوكلت اليه من مدة، فهو رجل خشن الملامح تجتاح أشعة الشمس تجاعيد وجهه الذي يمتد خيط الشر ليرسم من خلالها لوحة شيطان الصحاري الحارقة بأدق تفاصيلها، لقد اختير ليزيد العبيد المارقين ذلا وفزعا، كان قد أنهى طعامه للتو ومسح أصابعه الغليظة ببراجم رجليه، وقام يدك الأرض دكا لاستقبال فاتك الذي قدم له التحية وقال:
-هل من عبد أبق اليوم؟

رد سجان العبيد وهو يحوم حول الفرس ممسكا بلجامها:
-أمة وضيعة تنقل قرب الماء ومعها أخبار تحدث فتنة بين السيدات يا مولاي، جئ بها الينا من أيام.
رد فاتك ضاحكا:
-ماذا اخترت لها؟ هه..
-وجبة على أقدام الآلهة... ههه... لم يكن ذلك هينا يا مولاي.
-نحن نصبناك لهذه المهمة.. بينما.. بينما يتولى الأسياد في مكة ذلك بأنفسهم، لكن أخبرني.. أصعب عليك أوعلى غلمانك شئ يا حامي عزتنا حتى نأتيك بمن يساعدك؟
-كلا.. كلا يا سيد قومه، بطنها المنتفخة حالت دون سحلها فوق الرمل الساخن بسهولة، لم نصل أقدام الآلهة الا وقد خرج الآبق الصغير يتدحرج أمامنا، كان منظرا مضحكا حين همت باحتضانه وهي تحت سياطنا.. هه ...
-ههه...من يستمع الى هؤلاء العبيد حين يتذمرون فقبيلتنا تلفظه، لا كرامة لهم ولا قيمة، القسوة وحدها هي مستحقهم...ههه... تلك النعل الفاخرة، ماذا تفعل هنا؟
-سيأتي رسول بني عبد الأشهل لاستردادها مع متاع مولاه يا مولاي فاتك الملهم.
-آه، تذكرت ،ذلك العبد الملعون الذي لبس قلنسوة سيده وتقلد سيفه وخرج متوجها نحو اليمن، يالجرأته، لم ينس حتى النعل ! هه.. هه، ياله من أبق أنيق!

استدار فاتك مودعا السجان وهو يضحك بسخرية، فاذا بعض أعيانه ومستشاريه يخرجون من مقر اجتماعهم وهم يستقبلونه بالتحية والترحيب، انضم اليهم وأدوا التحية الى الاله المنصوب على رأس البناء، ثم دخلوا مسرعين.

كان عددهم يفوق الثلاثين رجلا، يتوسطهم شيخ طاعن في السن ذابت عظامه، فوق رأسه عمامة عليها ريشة عظيمة ،كان يبدو كأنه قطعة قماش مكومة من شدة هرمه ،نظر اليه فاتك وهو يحرك رأسه

منحنيا تكنس ريشة رأسه وجه نعله، ثم توجه نحوهم وهو يبادرهم بالتحية وقال:
-عمتم مساء أيها القوم.
-عمت مساء يا سيدنا.

تقدم قليلا وهو مطرق الرأس وقال:
-سأحدثكم أولا عما قررت فعله ثم..ثم أزف اليكم خبرا جاءني هذا اليوم، الأمر الأول وهو اخباري لكم أنني سأتحول الى الدور جهة الشرق، ذلك لأننا مقبلون على رياح الصيف التي تحمل الرمال الحارة، وبذا فانني سأترك خيام اقامتي الحالية، الأمر الثاني هو أننا سنبيع صبيان بني رافع عن آخرهم ليخدم كل واحد منهم أزواجكم الحرائر...عقابا لهم... عقابا لهم على معارضتهم لقولي وتسفيه رأيي، تأملت قليلا غرف السجان ولم أجد أنها تناسبهم وتشفي غليلي، ولا شئ يجزيهم الا المهانة في بيت كل واحد منكم، المهانة.. نعم المهانة هي مستحقهم...الأمر الثالث والأخير وهو أنني سأقتلهم جميعا إذا استمروا في المعارضة ورفع الصوت على من هم أعلى منهم شأنا وسيادة.

كان أحد أصهار بني رافع حاضرا فقال في ذعر:
-سيدي ومولاي تاج القبيلة، بنو رافع من رعيتك وتحت مشورتك، أنا أعتذر اليك مكانهم.

صرخ فاتك في وجهه وقال:
-اخرس يا هذا، كان عليك أن تمنعهم، لقد أثاروا غضبي وغضب القبيلة بأسرها، أسمعت؟... القبيلة بأسرها غاضبة.

توجه اليهم وقال:
-أليس كذلك ياقوم؟

هتفوا جميعا متملقين:
-بلى.. بلى يا مولاي، كلنا غاضبون.. كلنا غاضبون.

-نطق الشيخ الكبير وهو يحاول جاهدا متابعة ما يجري لضعف سمعه وبصره وقال:
-أنت يا مولاي سيد العفو والصفح، وستسخر منا العرب وتقول أن قبيلتنا تأكل نفسها، تعرف مكانة والدهم قبل موته بيننا، ولطالما رفع من هيبتنا، وهم من سلالة الأسياد، وأرى أن لا نجعل ذراريهم عبيدا لنا يخدموننا في بيوتنا.

تنهد فاتك وهو يداعب لحيته وعلامات الغضب على وجهه وقال:
-ستقول العرب.. ستقول العرب.. ستقول العرب حتما أن معارضيه تطاولوا عليه ولم يفعل شيئا، ستقول أنني أهون عليكم جميعا ولا تقدسونني بما يليق بشأني ،يخرج منكم من يسفه رأيي ويهتك قراري، هذا واللات ما ستقوله العرب، وأخشى ما أخشاه أن تتوسع المعارضة وتنهشنا القبائل من حولنا.
رد الشيخ بنبرة هادئة:
-ما زالت العرب يا مولاي تردد الأشعار التي قيلت فيك بعد حربنا الأخيرة التي خرجنا منها منتصرين و..كلها حلم وكرم ونخوة وجاه، ونحن نحب أن نرى سيدنا دائما وجيها.
تهللت أسارير فاتك قليلا وحك عنقه بمروحة جلدية سميكة وقال:
-بنو رافع.. بنو رافع.. لتسحقهم الآلهة، أخبارهم تأتيني أولا بأول حتى وهم في مخادعهم، تبا لهم.. يعارضونني؟ ألا يخجلون من ذلك؟
تقدم أحد الوجهاء وقال:
-هم من رعيتك يا مولاي، وأنا أشفع عندك فيهم، فأنت الشهم الملهم، وحقيقة الأمر أن الآلهة لم تنصبك ولم ترض عنك الا لأنك سيد حقا، هذه المعارضة لاتقدم ولا تؤخر، أنت سيد بالفعل لا بالقول وحده، ونحن جميعا نفديك بأرواحنا.
-ضحك فاتك ضحكة عالية وقال:
-باركتك الآلهة، قبلت شفاعتك، علي بساقي القوم الآن، وعلي بهم جميعا قبل أن أقوم من مكاني هذا ليؤدوا فروض الولاء والطاعة

من جديد، أيها الخدم، علي بالقيان والمغنيات ينشدن أشعاري الآن.

فسح له في المجلس وأخذ كل منهم مكانا وثيرا وهم يترنحون.

الرحيل

كانت العجوز وناسة تقترب من الخيمة في حذر شديد وهي تنادي بصوت خافت:
-فهيدة.. فهيدة.. أين أنت يا امرأة؟

كانت فهيدة منهمكة في اصلاح وبر الخيام مع زوجات أخريات، فهن عما قريب سيتركن تلك الخيام الضخمة الى الدور الطينية في أطراف مكة، والعناية بالوبر يجعل الخيمة تدوم طويلا.
خرجت حين سمعت النداء وهي تتمايل من وطأة الحمل وحرارة الجو وقسوة الخدمة، وقد علا الغبار الكثيف وجهها وعينيها وقالت:
-رويدك يا أماه.. لا.. لا يسمعنا أحد.

تنهدت العجوز وقالت:
-لا تخافي، فأنا وناسة القديرة.

قبلت فهيدة رأسها وكتفيها ويديها وهي تتوسل:
-أدركيني يا خالة...فأنت قديرة حقا، أنت في مكان أمي، أرجوك.. أنا.. أنا هنا كما ترين، وأمي.. أمي في سبي بني شوق ولم يفتدها أحد، هي تتمزق في ديارهم وأنا أتمزق في دياركم، الخوف المدمر والنار الموحشة تأكلني يا أماه، لقد اندثرت روحي كما يندثر البخور على أقدام الآلهة في يوم نذر عظيم.

جذبت وناسة يدها في مكر وقالت:
-اهدئي يا فهيدة، سأطلب من سيدي فاتك أن أكون القابلة التي تعتني بك يوم مخاضك، ولن يقتلك اذا استعطفته مولاتي، ولكنني... لا.. لا أضمن لك عدم قتل المولود اذا كان أنثى، أنت تعلمين أن

الاناث تلحق بالملائكة بنات الله، مضر وخزاعة تدفن أكثر منا، وأشد القبائل في ذلك تميم...مولاي فاتك تاج بقائنا نحن الاناث.
-آه يا خالة، أكثر.. أقل..أشد.. انه حريق واحد يهجم على قلوبنا نحن الأمهات، كان مولاي فاتك مشغولا بحرب حين بلغت ابنتي هند شهرا كاملا، لقد استقرت صورتها في قلبي ثم.. ثم دفنها حية !... آه...خرجت ليلا لأعانق قبرها، بل حفرتها التي حفرت مقلتي، فاذا ثديي يقطر لبنا على التراب، تلك القطرات كانت ترغمني على ارسال التعازي، يا لقسوة هذه الحياة !.. يا للقسوة.

بكت فهيدة بحرارة لدرجة الأنين، ووضعت يديها على بطنها وهي ترتعش قائلة:
-آه.. آه.. ما زال صراخ ابنتي الاثنتين يتردد في أذني، منذ ذلك اليوم وأنا أسمع أنينهما، آه.. آه...كم هو قاس هذا السيد، رأيته يكاد يبكي ناقة وقصها جمل فماتت، وما ذرف دمعة واحدة على ابنتي، دمعة واحدة ياخالة !... لم يبكهما أحد سواي...آه.. لم يبكهما أحد سواي... كم هو قاسي القلب، كانت ابنتي الثانية ترسل صراخها الى أذنه من تحت آخر حفنة تراب حتى تحول الى أنين سكتت بعده الى الأبد.

جمعت فهيدة ظفائر شعرها السميكة الى أعلى، وعقدت ثوبا مغبرا على ناصيتها وأردفت في حيرة:
-انظري يا خالة، تعالي معي.. تعالي وانظري الى ذلك الوتد المثبت هناك، خلفه بالضبط ترقد بنيتي الحبيبة،كانت حمرتها تتلألأ كأنها حبة رمان، ليت الآلهة تستطيع ايقاظها لأعانقها وأخبرها أنني أنا أمها التي لم تتشرف باحتضانها لحظة واحدة،لم أحتضنها أكثر من تلك الأشهر التسعة...آه...ليت الآلهة توقظ ابنتي معا لأعتذر لهما أن جاءتا ثم رحلتا فور مجيئهما، لم تصدقا أنهما خرجتا فورا من بطني المقهور الى بطن هذه الصحراء القاسية، ماذا تفعل تلك الآلهة يا خالة بكل هذه القسوة والعنف؟...ماذا تفعل بتلك العيون الجاحظة؟ ...آه... ألا ترى قلبي الممزق؟... لم تركت سيدي

يئدهما حيتين الواحدة تلو الأخرى؟ انني لا أحب آلهة لم تمنع الألم القاسي عن المظلومين لحظة واحدة.

وضعت وناسة يدها بسرعة على فم فهيدة وهي تقول:
-ويحك يا فهيدة، ستنزل بك لعنة الآلهة، أسمعت يا مجنونة؟...ستنزل بك لعنة الآلهة.
ردت فهيدة متذمرة وهي ترفع صوتها وتحدق في عيني العجوز:
-لعنة الآلهة.. لعنة الآلهة.. لاتهمني هذه الآلهة بعد الذي وجدت فيه نفسي من اللعنة والعذاب، ليتها تكلمت لتقول أنها تتلذذ بتعذيبي، ليتها تتكلم لتخبرني ماذا فعلت لتعذبني بهذه الوحشية.
-تمهلي، انها تقربنا الى الله زلفى ولا يحق لك اغضابها، أنت مازلت بحاجة الى معونتها، مخاضك قريب على ما أرى.
-هذا ما أشعر به أنا أيضا يا خالة، ماذا سأفعل اذا كان ما في بطني أنثى؟ ماذا سأفعل؟
-قلت لك سنرى ما الذي يمكن عمله، دعيني أتدبر الأمر، سأرحل الآن من هنا، فلربما جاء السيد ووجدنا نناجي بعضنا في هذا الوقت.
-لا تخافي، فقد ذهب الى بيت الأعيان، ولن يعود كالعادة حتى وقت متأخر، لو كانت الشوهاء حاضرة لدلتك على بيتنا في الدور الطينية، يا للمسكينة، لاأعرف ما الذي حل بها.
-لا تخافي يا فهيدة، سأطلب من سيدي أن يأذن لي في مرافقتكم.

تهللت أسارير فهيدة وصاحت:
-ستصحبيننا؟ أتمنى أن تكوني مقدم سعد علي وأضع مولودا ذكرا لتعود الي كرامتي وأصبح مثل الزوجات الأخريات أمسك بزمام أموري، أتطير بمقدمك أحيانا حين تحملين أخبار الحروب، ولكنني وجدت فيك أما رحيمة.
ردت العجوز وهي تشير بأصبعها إلى بطن فهيدة وقالت:
-قرارك ومستقبلك في بطنك يا فهيدة، أنا آسفة إن كان وضعك أن يملك بعضك كلك، هكذا هي الأمور.
-صدقيني يا خالة إذا قلت لك أنني أصبحت أكره النظر صوب الأرض لأن هذا البطن يعترضني ويذكرني أنني رهينة ما

بداخله، انه زنزانة العبودية التي تؤرقني وأحملها حيث ذهبت، أصبحت أشعر أن هذا المولود يكرهني، يمسك حريتي بيد ويلوح بمهانتي باليد الأخرى، أخشى أن يخذلني ويزيدني مذلة ومهانة على ما أنا فيه، فيتحول إلى أنثى... آه...سيسود وجه فاتك ويصبح كظيما من الغيظ ويتوارى من القوم لسوء ما بشربه، هل تظنين أن هذه الآلهة سترحمني هذه المرة؟

-لا تستعجلي يا فهيدة، لا تستعجلي...وسنرى عما قريب ما ستقرره الآلهة، أسرعي الآن حتى لا يدركنا أحد، وأعدك أن أجهز نفسي لمصاحبتكم، هيا...سأتركك الآن.

-إلى أن نلتقي ياخالة، ذكري آلهة الأسياد بمأساتي متى عكفت عليها، هذا رجائي... فلا سبيل أمامي للوصول إليها وأنا حبيسة إقامة الاماء.

عادت فهيدة إلى الخيام وهي تقلع الأوتاد الحديدية الثقيلة وتربطها إلى ظهور النوق وكأنها تقلع معها كل بسمة أمل بداخلها، كان كل ما يدور برأسها هو وضعها، وكيفية تحملها للمشاعر المصاحبة لذلك الوضع، أما وناسة فانطلقت تبحث عن خبر جديد تحصل به على الحظوة لدى فاتك.

كان الكل يستعد لموسم الحج، فقد جمعت النذور ووضعت في مكان محروس، وكان نذر قرية فاتك كبيرا، ضمت قافلته من القرابين ما انبهر له الجميع، أما الآلهة فقد تزينت ونصبت حوالي الكعبة شرقا وغربا، كما أن سوق الشعر قد انتصب له فطاحل الشعراء وعباقرتهم، كل منهم على أتم استعداد للتباري ونيل الحظوة لدى الأسياد، كل الطرق كانت تؤدي الى مكة في نظام عجيب واستعداد متقن، تتقفاه القوافل المحملة بالبضائع البشرية كالعبيد والجواري، والمادية كالزبيب والتمر والأثواب من الشام والهند واليمن، كانت البخور من حول الآلهة تلهب السماء وتزيد حرارة دخانها حرارة الجو لفحا، كل من يرى تلك المواكب المهيبة يشتاق لأن يكون في موسم الحج من الملبين الأوائل، الصلوات للأصنام والطواف والتصفيق حول الكعبة من العادات المقدسة.

لم يكن بوسع فاتك أن يتأخر عن الموسم أكثر مما فعل هذه المرة، اذ شغله خبر معارضة بني رافع له، ولم يشف اعتذارهم غليله ،وحدثته نفسه مرارا بقتلهم، الا أن كون الغدر ليس من شيمة العرب الأصلاء كان يمنعه، لذلك قرر أن يتجاهل عطاياهم هذا العام، ورد هداياهم ومجامر بخورهم وابلا وجارية حسناء قدموها للآلهة، لقد قرر فاتك أن يترك أمتعتهم في آخر الرحل، بينما شعروا هم بالمذلة وظلوا يشتكونها همسا، كانت شكواهم ترفع من نشوة فاتك وكبريائه حين يصله صداها، وكان أبناؤه يتحلقون من حوله وينشدون أشعارا قيلت في قبيلتهم وفخرها بين العرب، لكم كان ذلك الحداء يثلج صدره، ما جعله يختار مجموعة من غلمان العبيد لترديده أثناء الرحلة، كان الاستقرار بالدور قد أوشك على الانتهاء حين طاف على نسائه لاختيار من ستنال حظوة مرافقته، لم تكن فهيدة طبعا الا من حبيسات

حملهن، ولن يستوي أمرها الا عندما تضع ذكرا يزيد فاتك فخرا وسؤددا، كانت تتابع من بعيد أخبار الرحيل الى الموسم، فيخيل اليها أن الآلهة ستكون منشغلة عن طلبها في موسم الحج، فتخرج الى العراء وتتضرع الى الله والأصنام، تفعل هذا أكثر من مرة في اليوم، ولا تتوقف الا عندما تهدأ مشاعرها قليلا وتقترب من الرسو على شاطئ الرحمة والأمان، كانت الالهة نائلة ملجأها المفضل، تعتقد دائما أن أنوثتها ستقربها من فهم معاناتها، وانها – ربما -عاشت نفس الشعور مع الآلهة الذكور، كثيرا ما لعنت نفسها أن خلقت أنثى، وودت لو توفيت قبل ذلك ،تمنت لو كانت ذكرا ينال الحظوة ويمتطي الفرس ويخوض الحروب ويرث النساء والمتاع ويغشى مجالس القوم وندماءهم بكل حرية، الحرية هي ما تمسكه الآلهة عنها امساكا محكما، وهي التاج المرصع الذي لا تزين به الا رؤوس الأسياد وذويهم، رفعت رأسها ثم أدارته يمينا وشمالا وقالت في نفسها:

-لماذا كل هذا العذاب يا فهيدة؟ أمن الممكن أن تعيشي حرة بداخلك؟ بوسعك أن تنقلي مشاعر العز والسؤدد الى نفسك ووجدانك، بامكانك ذلك حتما... ودعي جسمك المنهك في سجن الاماء وأنت تحلقين بروحك بعيدا بعيدا، بامكانك شي لحوم الابل الغضة للأسياد واستنشاق دخانها لدرجة الشبع الكامل، بامكانك مد السيدة بأواني الماء البارد والنبيذ الفاخر وأنت تطفئين ظمأك من خلال تلمس طينها الخزفي الناعم وما يمد به يديك الخشنتين من الرطوبة الندية ، عودي الى سقاء العبيد من برك الماء المتحلقة حول الآبار العميقة وارشفي قطرات تصد الموت عنك وأنت ممتلئة عزا وكرامة، تقلبي في فراشك الرث واملئي رئتيك هواء صافيا واجعلي نفسك كأنك على سرير السيدة التي أنعمت عليها الآلهة بالذكور تباعا.

أمسكت فهيدة برأسها الذي هجمت عليه جيوش الحيرة والتساؤلات من كل مكان وسألت نفسها مرة أخرى:

-أيمكن هذا حقا أم أنني أصبحت أهذي؟ أتكون الآلهة من يحدثني؟ أم أن مصيبة هذا الحمل ناءت بي بعيدا نحو الجنون؟ يا ويحي! سيكون الموت مصيري حتما اذا جننت، ولا مجال للحديث عن طبيب أو

كاهن، فأنا لست شيئا أثناء سلامتي فكيف لو اعتراني مرض كالجنون الذي ترمي به العرب الكذبة والدجالين وينصرف الناس عنهم، سيقتلني فاتك لا محالة قبل أن يذاع خبري بسبب هذا البطن الذي يربطني به، المجانين وحدهم في هذه القبيلة يتحدثون عن المشاعر والأحاسيس التي تملأ قلوب آخرين أمثالي، حسنا.. حسنا أنت وحدك أيها البطن من سيحملني الى السيادة أو الى المزيد من العبودية، هذه هي الحقيقة والواقع الذي لا يترك مجالا للحديث عن حرية أو كرامة.

قطع عليها صهيل الفرس شرودها حين نزل أحد أبناء فاتك ليعلن لأمه أن أباه قرر أن يمنع بني رافع من الذهاب الى الحج هذا العام بعدما منع عطاياهم، واخبرها أنهم سيدفعون ثمن معارضتهم غاليا وتخسر تجارتهم جراء المنع، سمعته فهيدة من الجانب الخلفي وهو يتشفى ويسخر منهم، ويختار أفضع الألفاظ ليرضي غرور أمه فتهامست مع نفسها:

-يا للآلهة...بنو رافع سيذلون... لم تنفع حتى مصاهرة فاتك لهم وولادة ابنتهم ليلى ثلاثة ذكور ! يالخيبتها... سوف تتألم وتحزن لهذه الحرب النفسية على ذويها.

دخلت العجوز وناسة المكان فجأة، وطلبت من فهيدة أن تناولها كوب ماء شربته على عجل، ثم جلست وهي تضرب كفا بكف، تخترق قطرات العرق تجاعيد وجهها المتزاحمة حول فمها الذي يشبه صرة جلدية أفرغت للتو مما كان بداخلها ،فركت جبينها العريض ثم اقتربت منها فهيدة وكلها حيرة وقالت:

-ما بك يا أماه؟... وجهك ليس الذي يبشر بالخير، ثم لماذا لم تقصدي اقامة السيدات وأتيت الى هنا؟

ردت العجوز وهي ترتعش:

-خير؟...أي خير؟... خشيت أن تتطير بي سيدتي أم الأسود وأتيت الى هنا، أين هو سيدك يا امرأة؟ أين هو؟

-لا أدري يا خالة، ربما عند السيدات أو... يداعب فرسه ونوقه كالعادة.

-ويحك يا فهيدة، أنا جد مرهقة، اخرجي حالا وتقفي أثره، فلم أعد قادرة على القيام من هنا، من فترة وأنا أطوف الأزقة والدروب

حتى تسللت الى دار بني رافع وسمعت ما سمعت، أجل.. سمعت ما سمعت... يا لهول ما سمعت... هيا لا تتأخري، أخبريني.. أين هو سيدك؟ أين هو؟

قالت فهيدة والهلع يثقل لسانها:
-اعذريني... اعذريني يا خالة، أنا أحتاجك لمساعدتي...ولكنني الآن لا أستطيع مساعدتك، سيقتلني اذا ناديت عليه لخبر لا يسعده، أنت تعلمين أنه يتشاءم مني، ولا يحب أن يراني الا وقت الخدمة منذ ولدت له بنتين ودسهما في التراب، حتى فرسه لا يحب أن أخدمها وهو قاصد حربا أو تجارة.

صرخت العجوز وهي تحاول القيام:
-لتلعنك الآلهة، لا تنفعين في شئ، تنحي من أمامي الآن.

حملت العجوز عصاها وانطلقت وهي تغرسها في الأرض وتصيح: "أبا الأسود ياسيدي، يا فاتك الملهم، مولاي سيد القبيلة وحاميها.. أدركني"...

أطلت عليها ليلى احدى زوجاته وهي تحمل نعل فاتك محاولة فك خيوطه ليلبسه ويلحق بالعجوز وناسة عين السيد على اخوانها بني رافع، الا أن العجوز تعجلت ووقفت عليها وهي تحكم اغلاق فتحة نعل زوجها فاتك الممدد على أريكة طينية وقد فرشت عليها سجادة نمر فاخرة، أخذت تنظر معتذرة، بينما دلفت ليلى الى السيف وقلدته مولاها ورتبت عمامته وعطرت جوانبها، ثم انحنت وهي تنظر الى العجوز نظرات خاطفة لتعلم ما وراءها دون أن تشعر السيد بذلك، فهي تعلم أن خلافه مع بني رافع أهلها قد أجج شعوره، ولم يكفه ما دسه لهم من المتاعب وما جعل لهم من العقبات، قام وهو يسوي ريشة عمامته وقال:

-أيتها العجوز المزعجة، تكادين تقتحمين على مخدعي؟ لولا أخبارك... آه.. ماذا وراءك؟ لقد بالغت في الصياح.

ردت بسرعة وهي تتململ وجلة:

-سيدي فاتك المعظم... حبي لك وتقديري...عجلت اليك لترضى عني، انهم يدبرون أمرا لقتلك بعد ثلاث ليال... بعد ثلاث ليال منذ اليوم!

نظر غاضبا وصرخ:

-ويحك يا كومة الشؤم.. ماذا تقولين؟

انسلت ليلى خائفة مذعورة وعلمت أن سيدها سيغضب اذا كانت تلك العجوز الشمطاء قد أتته بوشاية سيئة عن أهلها، بينما أمسك هو بمقبض سيفه وكرر صارخا:

-من هم هؤلاء الأوغاد الذين يفكرون بمجرد الاقتراب من كبريائي وصولتي؟...أنا؟... يقتلونني؟

اشتد خفقان قلب العجوز وقالت:
-نعم سيدي أنت، أخبرتني سلافة أمة بني رافع أنهم عزموا على قتلك بعد ثلاث ليال، وقد هددتها بالقتل ان لم يكن الخبر صحيحا، أقسمت لي باللات والعزى أنها صادقة ودليلها حضورهم الليلة لزيارتك وتقديم الاعتذار والطاعة رسميا حتى تطمئن اليهم، قالت لي يا مولاي :" ترقبي هذه العلامة "... أنا... أنا..

أخرج فاتك السيف من غمده وصار يزمجر كالأسد مناديا على أبنائه وهو يردد:
سأقتلهم جميعا ولن أبقي منهم أحدا، هذا هو ما يستحقون، سأقتلهم وأعلقهم في جذوع النخل حتى ينضج البلح فوق رؤوسهم وتفقأ النسور عيونهم وتفترس شفاههم التي تنطق سوءا.. اللعنة.. اللعنة..
أسرعت العجوز راكعة وأمسكت بردائه وهي ترتجف وتتوقع أن تشق ضربة السيف عظامها وقالت:
-مولاي، هم أصهارك، سيدتي ليلى ولدت لك ثلاثة من الذكور، أنت سيد عقولنا وألبابنا جميعا، أنت ولي أمرنا فافعل بنا ما تشاء.

صرخ فجأة ورأسه الى السماء:
-ليلى.. ليلى...ليلى يا ليل الشؤم والويل... أين أنت أيتها اللعينة... حافر فرسي سيدق قلبك الآن.

هرع أبناؤه والتفوا من حوله، بينما جاءت ليلى وهي تمشي منحنية كأنها العجوز نفسها، وفي قرارة نفسها أن شرا لحق بها لا محالة، وأن اخوتها على علاقة بخبر الشرالذي أتت به العجوز الفتانة فقالت بصوت خافت:
-أمتك بين يديك يا مولاي، أنا...

قاطعها مزمجرا:
-هيه يا ليل الويل؟...ياليل الشؤم... اخوتك يهمون بقتلي ويتآمرون علي؟... وأنت؟... في قاع داري؟ تأكلين طعامي وتطئين فراشي؟

لا.. لاواللات.. لاواللات، لأجزن رأسك حتى أحرق قلوبهم جميعا وأجعلهم عبرة لمن يقف بوجهي!

سقطت ليلى على الأرض تقبل النعل الذي ألبسته اياه قبل لحظات وهي تتوسل قائلة:

-بحق الآلهة يا سيدي لا تفعل، أنا أم أبنائك الثلاثة عزك ونصرك في قومك، أنا واخوتي عبيد لك وأنت ملهم قبيلتنا ومالك زمامها،أنت...ها.. أنت..

-كان السيف الذي قلدته اياه قبل لحظات يتلألئ أمام ناظريها حين اشتد به الغضب، ولم يلتفت الى تلك التوسلات، فانهال به على عنقها أمام أبنائه جميعا بضربة واحدة، لم يشف غليله وانتفخت أوداجه، فرفع قدمه ووضعها على وجهها وأخذ يحك النعل الذي عقدت خيوطه قبل قليل بوجنتيها المدرجتين بالدماء الفائرة، ترك المكان فورا وتبعه أبناؤه، بينما أطلت فهيدة بكل حذر من مخدعها، فرأت العجوز تفر من المكان وهي مذعورة حاملة معها صورة بنت بني رافع وهي تقتل أمام أبنائها، تسمر جميع العبيد والاماء في أماكنهم، وعم الصمت المكان ،التفتت فهيدة جهة ليلى المدرجة بالدماء فاذا هي مفصولة الرأس عن الجسد ،كان طفلها ذو الثلاثة أشهر يرتمي على صدرها محاولا الامساك بثديها الميت وقد اصطبغ بالدماء دون أن يدرك شيئا مما يجري من حوله...!

كان المكان أشبه بمجزرة رهيبة لم تذكر فهيدة الا بنحر الذبائح في صحن البيت عند حضور الكاهنة، لم يجرؤ أحد على الاقتراب، أو مجرد ثني الطفل عن مص ثدي امرأة سقط رأسها على مسافة من جسدها !

بقي الطفل في بهو البيت يترنح على تلك الحال وهو يصرخ، حتى غالبه نوم أشبه بالموت الى جوارها.

سقط ظلام ذلك اليوم مبكرا وساد الهدوء المكان،وعاد فاتك في تلك الليلة مخمورا يحيط به سادة القوم وهم يهدئون من روعه، فقد استشاط غضبه أكثر مما يلزم، خصوصا عندما فر المعارضون وطلبوا الحماية من قبيلة معادية، فآووهم ووعدوهم بالحماية حتى ولو اقتضى تسليمهم شن الحرب، كان آخر ما أعلنوه في نادي العشيرة وهم يغادرون حاملين معهم ذراريهم وبعض متاعهم هذه الكلمات:

"أنتم رحمنا وأهلنا، لقد قتلت أختنا لأجل حريتكم، وها نحن نهجر ديارنا لأجل أن تتعلموا قول الحق ولا تصنعوا رعبكم بأنفسكم... أنتم وحدكم من صنع جبروت فاتك بسكوتكم المتكرر، ونظراتكم الراضية حتى وهو يبيع ذراريكم، أنتم جعلتموه فوق الآلهة العظام...وان السيادة ملك لنا وانما هو رمزها، ولكنكم جعلتم النار والدم خيوطا حديدية تكممنا جميعا وتنسجونها في نادي العشيرة على أقداح الخمر ومديح الشعراء، نحن سنودعكم فارين مذعورين... ولكن أيضا شجعانا مقهورين... أجل... أجل... شجعانا استطاعوا تغذية حريتكم وكرامتكم ولو لوقت وجيز، تذكروا أنكم أنتم من يصنع الطواغيت، تستطيعون أن تصنعوا قبيلة من غير قائد، ولكن.. لن تستطيعوا صنع قائد من غير قبيلة، فاتك يحتاجكم أكثر مما أنتم بحاجة اليه.. ستنصفنا الآلهة يوما.

لم تذق فهيدة طعم النوم تلك الليلة، وازداد رعبها ،واندثر كل أمل في استجابة الآلهة لنداءاتها المتكررة، خصوصا عندما رأت مصيبة ليلى التي كانت تقدم لها القرابين والنذور، ولا تفوت فرصة الا وهرعت

عاكفة، وهاهي خذلتها في أحلك لحظات حياتها المليئة بالعز والسؤدد لكونها بنت الأشراف وأم الذكور، ظلت تعيد ذلك المشهد المرعب أمام ناظريها ،وبالتدريج، سرح بها خيالها في دروب الرعب والخوف والقشعريرة، كأن حمى مزمنة ألمت بها، سرعان ما تستدعي يقظتها ركلات الجنين وحركاته داخل أحشائها، فتضع يدها على بطنها وهي ترتعش وتقول متضرعة:

"أيتها الآلهة.. يا نائلة المقدسة !.. يا نائلة المقدسة !.. جودي علي برحماتك، اجعلي ما في بطني ذكرا.. أرجوك.. هل ستفعلين؟... هل تسمعينني الآن؟... هل في علمك أنني سألد ذكرا؟...هلا أخبرتني؟.. هلا أخبرتني؟... هلا جعلت سكون هذا الليل يسكن نار قلبي ووجع ظنوني؟".

لا جواب تجده فهيدة يهدئ من روعها وظلت تنتظر، لاشئ سوى الانتظار، فالصحراء ساكنة سكونا تاما، وتلك الآلهة أشد سكونا منها، لم تنطق لأحد يوما بحرف واحد، صممها يجعلهم هم من يتكلم وهم من يجيب بالنيابة عنها، تحرس قوانينهم الجائرة بكل الحزم، تبارك احتقارهم لمن ليس من طبقتهم الدينية والاجتماعية، وآلهة بمثل هذا الاجرام لا يمكن الا أن تكون صماء عن تأوهات فهيدة الى الأبد، تحذق بعيونها التي صنعوها بأنفسهم وجعلوها تنظر اليهم دون أن تغلق، لكم كان الفقراء والعبيد يتمنون فقأ تلك العيون الساهرة على عذاباتهم المتكررة، والمتملية بالقرابين التي تكون أحيانا واحدا منهم، انهم يمشون أمامها ليلا ونهارا حفاة عراة جوعى، ليست لهم كرامة ولا حق حتى في مجرد الكلام، انها تتفرج على مأساتهم حين يقرر الأسياد تعليقهم على جذوع النخل وتعذيبهم حتى الموت، لمجرد أن أيديهم أفلتت آنية طينية أثناء الخدمة، وتسمع صلصلة السلاسل الحديدية التى لم تجد فرصة لتصدأ لكثرة ما لفت الأذرع والسيقان والركب والأعناق في صمت ليالي الصحراء الشاسعة، انها آلهة عنصرية بامتياز، تختار السود للعذاب والبيض للقربى، تنتقي صغار القوم للمهانة وتجلس الى الكبار والوجهاء، تنادمهم وتعاقرهم النبيذ والخمر وهي تتلذذ برائحة شواء الضأن حين يتكلف العبيد بنفخ نيرانها تحت نيران الصحراء

الملتهبة، انها آلهة وفية للظالمين تجلس حيث قرروا جلوسها، ولا تتحرك من مكانها أبدا،قد تسمح لهم أن يحملوا بعضها الى بيوتهم، ولكنها لا تدخل أي بيت، ما عسى فهيدة المهيضة الجناح تفعل أمام هذه الآلهة الجبارة المستكبرة؟... تساؤلات وتأملات هجمت على مخيلتها واستقرت تلح بلا جواب، فعما قريب سيذهب سيدها فاتك لاستشارتها، والاستقسام بالأزلام عند أعتابها ما اذا كان سيقيم الحرب على مجيري بني رافع فورا أو بعد موسم الحج، فهي تعلم علم اليقين أن هذه الآلهة تحب الحرب حبا جما، اذ كثيرا ما كان السلم قريبا فنصحت بخوض الحروب، وأعلت من لواء الأزلام العاشقة للون الموت والدم والخنا، شعرت فهيدة بالمؤامرة الصنمية في كل مكان، وكرهت رؤية هذه الآلهة الصغيرة المثبتة أمامها في ظلام الليل الخفيف، فقامت مسرعة نحوها وقالت:

" يا نائلة الصغيرة... لا... بل يا نائلة الحقيرة، انني.. انني.. أكرهك.. أكرهك.. لم جعلتني في هذا العذاب؟ أجيبي، لم أنت صامتة هكذا؟ كم مرة سألتك عما في بطني؟... كم مرة؟... كم مرة؟...واللات والعزى ان لم تجيبيني الآن فسأرمي بك أرضا وأكسرك، هل سمعت؟... سأكسرك شر الكسر... سأكسرك"...

توقفت فهيدة لحظة وكأنها تنتظر جوابا، ثم أخذت تشمر عن ساعديها المنهكتين وهي واقفة تنتظر، أطالت الانتظار، ساد صمت رهيب المكان، فنزعت فهيدة عن نائلة الصغيرة قلادتها، وتفلت على وجهها وهي تدس رأسها في التراب وترتعد من الغضب والخوف والحيرة، تركتها مرمية في وضع مهين، ثم ذهبت الى مكانها لتنام والخوف من انتقامها يأكل ما تبقى من الأمان في قلبها، تململت قليلا، فخطرت لها فكرة سرقة صنم سيدها لأنه -ربما – هو من يمنحه الجاه والقوة والعزة والسؤدد حتى فاضت مظاهر الجاه والقوة من حوله، ولكم هي بحاجة الى شئ من ذلك قبل وضعها المرتقب، قامت مسرعة وهي حافية القدمين، ثم تسللت الى أبواب الدور القصيرة بابا بابا، حتى اهتدت الى مكانه بسبب ضوء القمر، فحملته بحذر شديد، كان ثقيلا من الحجر الصخري المتين، الا أنها تحاملت عليه واستعانت ببطنها المنتفخة وهي تحتضنه كأنها نملة صغيرة جائعة تجر حشرة كبيرة، وما أن دخلت مخدعها وهي تلهث حتى شعرت أن أول ما عليها فعله هو الصلاة أمام الاله بسرعة لتطلب منه أن يقربها الى الله زلفى ويمنحها الذكور من الآن الواحد تلو الآخر، كانت نبضات قلبها تتسارع وهي تعانقه وبرد صخره يلفح وجهها الممتلئ حرارة، حرارة الخوف والأمل في آن واحد فقالت:

"أرجوك أيها الاله المقدس...لا تخبر سيدي أنني سرقتك... نائلة هذه مخادعة وحقيرة... ولا تعير توسلاتي أدنى اهتمام... أرجوك لا تفعل بي أنت أيضا ما فعلته هي دون رحمة...و.. ولعلك تنفعني أمام عجز هذه الحمقاء الصماء التي لم تزدني الا ذلا... أنت...أنت لا ريب تسمعني، وستجعل ما في بطني ذكرا... أليس كذلك؟...اعذرني أن

وضعتك على الأرض.. على الأرض وفي اقامة العبيد والاماء...هذا أول دخول لك الى هنا...اعذرني... فقد كان علي أن أحملك وأحمل ما في بطني كما ترى...هه... أسألك باللات والعزى... لم تركتني أحمل ما أطيقه وما لا طاقة لي به؟... أنت لاتحب أن تكون بيننا نحن العبيد والاماء... أعلم ذلك... ولكن... أجبني... أجبني أيضا لم لا تدخل دورنا نحن؟...لم سمحت لسيدي أن يأكل ما لذ وطاب ولا نأكل نحن؟... لم وهبته التمر الجيد وجعلتنا نطحن النوى الذي لفظت شفتاه نمضغه مضغا وقد أنهكنا الجوع والعطش؟... انظر.. انظر الى يدي... انني أطحن طحين الخبز حتى شقت الرحى راحتي دون أن آكل قطعة واحدة منه، هل تظنني زاهدة الى هذا الحد؟ هل تعلم أن منحك القوة والمال والجاه لسيدي فاتك وحده قد أضر بنا في هذه الدور الخربة؟... هل لأنك لا تحس بما نحن فيه من الضنك لبعدك عن دورنا أم أنك تتجاهلنا عمدا؟... ان كنت تحس وكما نبئت، فانك معاند مكابر؟...وان كنت لا تحس فشأني أن لا أطلب منك شيئا"....

تنهدت فهيدة وقد انثنى ظهرها ،وضغط حملها على ضلوعها، واقتربت من الاله تنظر في عينيه وقالت:

"هل هذا العطر الذي علق سيدي على صدرك تشمه وأنفك مغلق إلى الأبد؟... لم لا أشمه أنا التى ترمى بقايا ذبائح سيدي وراء مخدعي وتزكم أنفي لأنني ألد الإناث؟... تكلم أيها الاله الصامت ولا تتركني أتعذب... تكلم... أم أنك لا تستجيب إلا للذين قررت أن يكونوا أسيادا ولا شأن لك ببقايا البشر مثلي؟... أعلم أنني غامرت باحضارك إلى هنا... أتسمع؟... غامرت وأنا على يقين أن مصيري الموت ألف مرة إذا انكشف أمري... هذا لأنني فقط أحب أن أتوسل إليك حتى تراني جيدا وترى... وترى المكان الذي وضعتني فيه...انظر أيها الاله المنعم كيف أفترش الأرض وألتحف السماء، أنت لم تطلب من سيدي يوما أن تتفقدني أين أسكن ولا أين تسكن الزوجات الأخريات أمهات الإناث، هل لأن هذا لايهمك؟ أجبني... هيا أجبني لأن صمتك بدأ يفتك بأعصابي في هذا الوقت المتأخر من الليل، لقد أصبح تقديسك وأهانتك على خط واحد أمامي... أصغ إلي جيدا فما زالت أضلعي تتألم من حملك على ظهري

حتى أحضرتك إلى هنا..فلا تعبث بمشاعري... أتوسل إليك لا تعبث بمشاعري أكثر مما فعلت... هيه؟.. هل قررت أن تجيبني أم أنك أنت أيضا عنيد مكابر؟ انظر إلى نائلة فقد دسست رأسها في التراب كما تم دس بنتي وهما حيتان...آه... تذكرت.. تذكرت.. أنت أيها القاتل المجرم من فعل ذلك، فاتك لا يأتمر الا بأوامرك اللعينة، ضبطتك الآن، لست أدري كيف كنت مغفلة ولم أنتقم منك منذ زمن، فسيدي يستشيرك في صبحه ومسائه، في الصغيرة والكبيرة من شؤونه، وقتله ابنتي من جرائمك الرهيبة، ومما تمليه عليه حين يقدم لك تحية الصباح ويسألك الرعاية ،وتحية المساء ويسألك العناية... أليست هذه هي الحقيقة؟ خذ هذه على وجهك أيها الحقير المتآمر على الضعفاء".

تفلت على وجهه مرات عدة دون أن يهدأ لها بال، ثم أخذت تنظر إليه وهي تتوجس في قرارة نفسها من بطشه ولعناته، إلا أنه ظل جامدا لا يحرك ساكنا، فأخذت تمزق كل ما كان عليه من الحلي والتمائم والزينة، ثم تحاملت عليه وجرته إلى البئر وعليه زينته الملتفة دون أن يشعر بها أحد، كان رأسه إلى أسفل ورجلاه الضخمتان إلى أعلى، تمسك بهما مرارا ،فينزلقان بسبب نعومة ملمسه لكثرة ما تمسح به فاتك.

استطاعت أن تصل به إلى حافة البئر دون أن تلفت نظر أحد، ثم رمت به في القاع، فأحدث ذويا وهو يغرق في الماء العميق، ثم فرت مذعورة إلى قرارها، وتظاهرت بالنوم والفزع يكاد يقصم أنفاسها المتلاحقة ونبضات قلبها المتسارعة، لم يكن للنوم من سبيل الى جفنيها المتعبين ،فبدأت الأفكار تتزاحم في مخيلتها وتراودها فكرة انتقام الاله منها في صباح اليوم التالي، ثم سرعان ما تقنع نفسها وتقول:

" إن كان هذا اللعين إلها حقا، فسيفضحني غدا أمام الجميع، وان كان حجرا لاغير، فقد كسرته وفقأت عين فاتك، ودققت عروق قلبه القاسي، وانتقمت للمظلومين".

لم تنس أبدا أن تزيل آثار قدميها حول البئر، أو أثر أي حركة تدل على أنها وأدت اله سيدها ودسته في البئر دسا، أما نائلة فأعادتها إلى مكانها وهرعت إلى مخدعها وخلدت إلى النوم.

في صباح اليوم التالي أذن مؤذن " أيها العبيد انكم لسارقون"، تردد أن متربصا فتك بالاله المعظم لفاتك بعدما انسل خلسة الى اقامته، وأنه لاريب من العبيد أوالاماء الذين يترددون عليه، غضب حين علم بما حدث في تك الليلة، فقام وكسر كل ما حوله وأخذ يزمجر كالأسد الذي دمر عرينه غدرا، فقد شعر أن قوته الدينية وهيبته الروحية هي التي مست، لم يستسغ أن يكون ذلك في عقر داره ،كما أن نفسه لم تسمح له أن يخرج الخبر الى وجهاء عشيرته، لأن ذلك سيكسر طوقا من الكبرياء طالما عمل على تثبيته، ولا يمكن أن يسمح بكسره في لحظة واحدة وهو لما ينتقم بعد من بني رافع، وقف وسط الدار وصاح:

-اللعنة، كيف يجرؤون علي الى هذا الحد ويقتحمون داري؟ علي بالحراس وكل أبنائي واحدا واحدا، لاريب أن هذه من مكائد بني رافع، واللات والعزى لن أهدأ حتى أحاربهم وأحارب من آواهم.

ظل يكررها دون أن يستطيع أحد أن يقترب أو يبدي رأيا، كل من كان في المكان تسمر ولم يحرك ساكنا، أما الحراس فاصطفوا وهم متقلدون سيوفهم في الخارج يتوعدون كل من سولت له نفسه مجرد الاقتراب، فخرج اليهم وأبناؤه من حوله ولكز رئيسهم وقال:

-واللات والعزى ما أغنت عنا سيوفكم أيها الأوغاد شيئا، اغربوا عني حالا، عاد مرة أخرى الى خيمته بأسرع من البرق ووراءه أبناؤه ،التفت الى كبيرهم ونهره بشدة، وأمره أن يجمع الأعيان فورا ليذهب اليهم ويشركهم في همه، فلم يعد يملك أعصابه أبدا، وليس بمقدوره التكتم أكثر مما فعل، أسرعت زوجاته وأحضرن العمامة والعطر والنعل والسيف، بينما جلس أمام المكان الذي كان فيه الاله وأخذ يذرف دمعا حارقا ويعتذر اعتذار المتدلل، فقد

تملكه خوف شديد من هذا الاله الذي طالما كان الى صفه، شعر أنه فرط في جنبه ولم يحرسه بما يكفي، وود لو أتى بسرب من الكلاب الضالة وأحاطها بمصدر قوته الروحية، بينما كانت فهيدة ومن معها من الخدم يعتنون بالفرس الذي سيمتطيه فاتك بعد لحظات.

اقترب منه أحد أبنائه الصغار وهو يرى دموعه تنهمر على خده وقال في حيرة:

-أبي، لم البكاء؟ أصدر أوامرك إلى قيس وينحت لك إلها آخر وأنه المشكلة.

غضب فاتك وأحنى رأسه حتى كاد يلامس الأرض وقال بصوت خافت:

-أخشى أن يغضب علي وينزل بي لعناته.

-ولكنه الان غير موجود يا أبي، لعل هذا السارق ذهب به ليعبده هو أيضا أو يبيعه الى عابد آخر.

شدد من انحناءة رأسه وقال:

-لم يخذلني يوما يا بني، وأرى أن لعنته ستنزل بي قريبا، واللات والعزى لأذبحن عشرات من حمر النعم على أعتاب اساف ومناة العظيمين.

اقترب الطفل من والده وهو يرى علامات الانفراج بادية عليه بعد إعلان نذره وقال:

-أبي، هل سنذهب إلى الحج ونتمسح باساف على الصفا ومناة على المروة هذا العام؟

-نعم.. نعم.. يا بني، سنذهب ونعتذر ،وسنقدس آلهتنا وتسمع بنا العرب.

-هل سأرافقك حقا يا أبي؟ أمي أخبرتني أنني ربما كنت رديفك على فرسك الأصهب.

-كل أبنائي الستة عشر سيكونون من حولي، صغارهم وكبارهم، فأنتم جزء من هيبتي وفخري أمام العشائر.

-هيه.. سألتقي بأصدقائي أبناء الأسياد من كنانة وخزاعة والأوس والخزرج وثقيف.
-ستحضر كل القبائل ومنهم أحلافنا، وسنجعل هذه السنة احتفاء بالآلهة ما جعلناه من قبل.

شعر الطفل أن أباه بدأ ينشرح وجفت دموعه وأنه أرضى الاله المسروق بكلامه ووعوده وقال:
-هل ستنتظم الوفود وتدق الطبول معلنة عن مقدمنا؟
-نعم سيحدث ذلك... سيحدث... وستسمع بنا العرب ،وستكون أعلامنا مرتفعة في أعالي السماء.
-آه.. لكم أحب أن أطوف يا أبي عاريا وأصفق بكلتا يدي، آه.. آه.. انه منظر ممتع.
-لا يابني، قبيلتنا من حلف مكة ولن نطوف عراة، هذا لغيرنا.
-متى يحين السفر اذن يا أبي؟...متى؟...
-اذهب عني الآن فلا وقت لدي...هيا... عما قريب سأقصد مجلس الأعيان، هيا... قم عني الآن يا ثعلبة.

لبس فاتك أحسن لباسه، وأتت فهيدة بلجام الفرس إلى أقرب مكان من إقامة السيد،حاولت إظهار بكائها على اختفاء الهه، امتطاه دون أن يعيرها أدنى اهتمام، فليس هو الرجل الذي يصدق أن للجواري والإماء شيئا اسمه الدموع والشعور والإحساس، مضى تثير حوافر فرسه الغبار من ورائه تتلوه جياد الأبناء، بينما شعرت فهيدة بنشوة بداخلها وهي تراه غاضبا على فقدان إلهه العاجز، ضحكت في قرارة نفسها وقالت:
"هه... كان عليه أن يصعد من البئر بمفرده ويخبره أنني من دسه دسا، هه... لكم كنت خائفة أن يخبره ولكنه... ههه.. لم يقدر، وقضى ليلته في تلك البئر العميقة المظلمة، ههههه....
-دلفت نحو الرحى وشعور بالشجاعة يجتاحها، لقد نقص خوفها كثيرا، وأصبحت تفكر في قتل فاتك نفسه قبل أن يقتل ما بداخل بطنها هذه المرة، لكنها تراجعت فورا لأن دقات قلبها اهتزت لمجرد التفكير في ذلك الفعل الشنيع، ولكن، سرعان ما عاودتها

الفكرة فأسلمت خيالها للخيال، وصارت تفكر في الطريقة التي تريحها من هذا الرجل الذي عذبها طيلة حياتها وجعلها طوال الوقت في خيام المنبوذين من العبيد والضعفة والحثالة، كانت الرحى تدور بقوة وتسابق ساعدها المنهك وهي تتأمل ذرات الطحين التي ستدخل الى بطن فاتك المنتفخة، فهو يحب الحلوى المصنوعة من التمر والزبيب والدقيق المحمر على النار، وهي غير مكلفة بالطهي بقدر ما تقوم بما شق من أعمال السقي والطحن ورعاية الفرس، فكيف السبيل الى قتله بالسم أو السيف؟

تدحرجت الأفكار الخطيرة من عقلها الى قلبها الذي اهتز اهتزازا مرة أخرى، فقامت مذعورة وقررت أن تعدل عن تلك الفكرة المجنونة والا دفعت حياتها ثمنا لها.

كانت العجوز وناسة تضرب برأس العصا قرن الباب وهي تنادي:
-فهيدة.. فهيدة..

قامت اليها فهيدة مسرعة وقالت:
-أرجو أن يكون وراءك خير هذه المرة، فقد أصبحت في هذا البيت نعي الكيد والحروب والقتل والفتنة.

ضحكت العجوز ضحكة ماكرة وقالت:
-بنيتي فهيدة، سمعت أن فاتك سيذهب مبكرا الى الحج هذا العام.

فهمت فهيدة أن العجوز تبحث عن أمر أو مصلحة حين نادت عليها ب" بنيتي" وردت:
-تعلمين يا أماه أنني لا أتدخل في مثل هذه المواضيع، ولا يسمح لي بذلك، ولكن... لم هذا السؤال؟
-أظن أنك ستلدين وهو في الموسم.
-حقا؟
-أجل هذا ما أخبرتني به الآلهة وأكدته سعدة الخزرجية، وهي... خبيرة كما تعلمين...

قاطعتها فهيدة قائلة:
-أظن أن هذا من فراسة سعدة فقط.

صاحت العجوز قائلة:
-ويحك، وهل سعدة أعلم من الآلهة، لقد ذهبت بنفسي الى عرافة كبيرة وأخبرتها أنني خادمة مولاي فاتك فسألتها عنك...

قاطعتها فهيدة بسرعة قائلة:

-سألتها عني؟...ماذا قالت بحق الآلهة؟... ثم... ما سر هذا الاهتمام منك في آخر لحظة؟

ضحكت العجوز ضحكة ماكرة وقالت:
-أما تعلمين؟... يا لغبائك يا امرأة، أحب أن أكون أول من يزف لمولاي خبر ولادتك ذكرا، فهو سيفرح ويكرمني اكراما. ههه.. ههه.
-ماذا قالت العرافة؟... أرى أنك عجوز تكذب علي وتحفر ألمي وهمي.
-قولي ماشئت، سأبقى الى جنبك حتى تضعي مولودك، واذا كان ذكرا ذهبت إلى مكة لأزف لمولاي الابن السابع عشر أمام وفود العرب، وأنشد أشعارا، ويكون الاحتفال تحت رعاية الآلهة.
تأوهت فهيدة وقالت وهي تهم بالبكاء:
-واذا كان أنثى يا خالة؟... أخبريني.. لتحرسك الآلهة... أخبريني ماذا سأفعل؟ لا أحب أن ترسل الي صراخها من تحت التراب الجاف القاسي للمرة الثالثة، لا أحب أن أكون مثل حليمة التي دفن زوجها خمس بنات تباعا تحت التراب، لم أعد أحتمل... صدقيني... ما عدت أحتمل.

أجهشت فهيدة بالبكاء المرير وتدلت عيناها فوق خديها، بينما ردت العجوز وهي تقطب حاجبيها وقالت في برود:
-اذا كان مولودك أنثى، فسيقتلني مولاي فاتك اذا لم أدسها في التراب بالنيابة عنه قبل أن تكمل الصرخة الأولى ويعلم أمرها، سيكون من بيننا من يعيره بها وهو في سفره الميمون، لقد أوصى مسروق أن يحفر الحفرة بمجرد مجئ مخاضك، أما علمت بذلك؟
-آه... مسروق؟... مسروق مرة أخرى؟... واللات أيتها العجوز ما رأيت منك الا شرا، لقد نكأت جرحي من جديد ونهشت كلماتك كبدي نهشا، اسم هذا العبد ينزل علي كالصاعقة.
-أي بنيتي، حاولي أن يكون مولودك ذكرا وستحظين بما حظيت به السيدات من الحفاوة والتكريم.

-وهل أغنى عن ليلى أبناؤها الذكور شيئا؟...آه...لقد رأيت لأول مرة في حياتي صبيا يرضع ثدي أم بدون رأس !...يا لهول ذاك المشهد !... ياللهول!
-لو سمع مولاي كلامك لقطع لسانك.

استدركت فهيدة وقالت بصوت خافت:
-ارحميني يا خالة... ارحميني أرجوك، أنت قديمة في هذه الحياة، أظن أن أمامي الكثير لأصل الى عمرك، أنا الآن غصن مقطوع من شجرة محروقة في فلاة محروقة، هل بيدي أن أغير ما في بطني من ذكر الى أنثى؟... هل تخفين عني وصفة لذلك ولا تعلميها الا للسيدات؟... لا تترددي في مساعدتي وطلباتك.... وسأنفذها حتى ولو دفعت فيها لحمي ودمي، لقد تعبت.. آه.. لقد تعبت.. تعبت يا خالة.
-هكذا هي الأمور يا فهيدة، كفكفي دمعك وتوقفي عن الأسئلة فأنت تتعبين نفسك، مولاي فاتك ترعاه الآلهة دوما، وقد شرفتك بأن تكوني خادمته.. لا تنسي هذا... الآلهة تقرر من تزيده العز والسؤدد.
-آه.. الآلهة مرة أخرى.. آه.. هل سمعت يا خالة عن اله فاتك أنه سرق؟ ألم يدافع عن نفسه؟ وهل علموا من سرقه من غرفته الخاصة؟
-العرافون كلهم أجمعوا على أن امرأة سرقته من الدار.

نظرت اليها فهيدة وكادت أن تسقط على الأرض وشعرت بالاغماء الا أنها تماسكت وقالت:
-امرأة؟.. امرأة؟..من تكون؟ هل ذكر أحدهم اسمها؟
-لا..لا..لا أجمعوا أيضا على أنها أتت به أبناء بني رافع انتقاما من مولاي الذي هجرهم، سيمسك بهم ويخبرونه من تكون هذه المرأة الخائنة التي سرقته ليلا.

استرجعت فهيدة قوتها ثانية وهدأ قلبها عن الخفقان وقالت:

-هذه الدور فيها عشرون امرأة ياخالة، كلهن زوجات واماء لمولاي فاتك، فكيف للكاهنة أن تعرف تحديدا من هي؟
-قالت أنها من خارج دار مولاي فاتك العظيم، وأنها من السيدات الوجيهات، وقد قرر الأعيان في مجلسهم أن يؤجلوا قضية بني رافع الى ما بعد موسم الحج، وسيطلبون ذلك من سيدي فاتك اذا وافق، الآلهة تنتظر القرابين والنذور، والاستعجال لارضائها يسبق كل شئ.. الكاهنة تحب العجلة، خصوصا في مثل هذه الأمور.

كانت فهيدة تحاول أن تعرف عن سفر الحج الكثير، اقتربت من العجوز وناسة وقالت بصوت حزين:
-لقد بدأت الاستعدادات للموسم، وهل ستذهب النساء يا خالة؟

أجابت العجوز في استهزاء وسخرية كبيرين وقالت وهي تجذب ثوب فهيدة الرث:
-الحرائر... أمهات الذكور... أسمعت؟... قلت أمهات الذكور، و.. هن أيضا ربما... ربما ذهب بعضهن فقط، هذا ما يحدث عادة.

سكتت فهيدة قليلا وقالت:
-أماه، هل بامكان الكاهنة اخباري بما في بطني؟ أرى أنها لم تفلح في معرفة سارق اله فاتك ولكن.. ولكن هل هي على اتصال بالسماء حقيقة؟
-معرفة ما في البطن أسهل من معرفة سارقة تسللت في جنح الظلام وهي تتقمص شخصية مولاتي أم الأسود كما ذكر الحراس، حملت الاله دون أن يكون لها أثر.

كتمت فهيدة ضحكة بداخلها سرعان ما فتتها فزع داخلي يسكنها وقالت:
-ماذا لو أطلت الكاهنة على ما في بطني ووجدته أنثى؟... اللعنة... سيجعلني مولاي هذه المرة أحتضن ابنتي الحبيبة تحت التراب الى الأبد.

اقتربت منها العجوز وهي تشعر أن صيدا ثمينا يقترب منها وقالت في دهاء:

-لا تخافي، اذا قالت ذكرا سنخبر مولاي، واذا قالت أنثى سنصمت حتى يحين أوان الوضع ونرى ما ستفعله الآلهة، ما رأيك؟ لا.. لا.. لا يا فهيدة، لا أستطيع فعل ذلك أو مجرد تصوره، لا يمكنني أن أصمت والا لقيت حتفي مكانك.

-سيخبره الحراس أنني خرجت من سجن الحوامل، سيخبرونه لا محالة ويضرب عنقي.

-اسمعيني جيدا، مولاتي أم الأسياد وحبيبة مولاي لا تسافر في موسم حج عادة الا ونادت على الكاهنة لاستشارتها في كل صغيرة وكبيرة مما هي مقبلة عليه ،سأرافقها حين تحضر، وعند انصرافها سأمر من هنا لتراك في وقت خاطف.

انحنت فهيدة تقبل رأس العجوز المليء بروائح البخور العفنة ودموعها تنهمر من شدة الخوف والفرح، فهي ستتعرف أخيرا على جنس مولودها وترتاح من أهوال الحيرة، ولكن ماذا.. ماذا لو كانت أنثى؟ ماذا لو كانت بنتا ثالثة؟ ماذا لو كانت آلهة الكاهنة عاجزة كاله فاتك؟

هرعت العجوز مسرعة وهي تشعر أنها ظفرت بصفقة هامة قبل سفر فاتك، ستعقدها وتجمع المال اللازم لشراء عبد قوي البنية يحرسها ويقوم بخدمتها، فقد باعت للتو عبدا أعطاها اياه سيدها فاتك، الا أنه كان يتلعثم في الكلام وقصير القامة ضعيف البنية، وهي تحب استبداله بمن هو أقوى منه وأشد شكيمة نظرا لدورها الأمني في القبيلة.

اقترب أوان السفر الى الكعبة في مكة، وكان لزاما على زوجات فاتك وأمهات الأسياد أن يستشرن الكاهنة ويأخذن رأيها في شؤون سفرهن وما يقدمن ويؤخرن قبل الرحلة السنوية، اجتمعن وسط الدار، وأشعلت البخور للآلهة المبجلة ،ووضعت القداح والفاكهة وتأهب العبيد والاماء للخدمة، توسطتهن الكاهنة البدينة التي حضرت وهي تحمل الكثير من الأثواب الملونة على كتفيها وكأنها صخرة ملونة تتدحرج وسط الدار، تطأ الأرض برجلين خشنتين وسختين تعلوهما خلاخل كثيرة ومتشابكة تتدلى منهما عناقد فضية براقة، وجهها كأنه قطعة من اللهب يشع حمرة وسوادا، وجنتاها حمراوان حتى السواد، ربما بفعل الادمان على تلك الأبخرة ذات الرائحة الكريهة والاقتراب الشديد توسلا من نارها الملتهبة، رفعت رأسها نحو السماء ويداها الكبيرتان تداعبان أنواعا من الصدف البحري المتكسر، والى جانبها شاة مذبوحة من وسطها، تلتفت نحوها من حين لآخر، ثم تحمل عودا تغرسه في دمها وتضعه بالترتيب على وجوه السيدات الحرائر وجباههن، الفارعة أم الأسود أولا، ثم التى تليها في الشرف والمكانة، ثم التي بعدها... كانت فهيدة مع الطبقة الدنيا من النساء تنظر الى تلك الحلقة الوجيهة وهي مختفية وراء الخدور، كلها فرح وخوف، تتشوق الى ما ستقوله الكاهنة القديرة التي تأخذ كل السيدات برأيها دون تغيير ولا تبديل، تتوسل معها الى آلهة الجن الذين يحدثون المرأة وهي تنادي عليهم بأسمائهم وصفاتهم لكي يخبروها عن الغيب وما يخبئه المستقبل، ترفع فهيدة رأسها الى السماء كلما رفعته الكاهنة وتخفضه حين تخفضه، وفجأة صرخت الكاهنة صرخة عظيمة ثم حلت شعرها الأجعد وأرسلته على وجهها، وأفرغت عليها ماء ممزوجا بدم الشاة وأخذت تترنح كالذي يتخبطه الشيطان من المس حتى تناثرت قطرات شعرها المتسخة على وجوه

السيدات المعفرة بالدهان المعصفر وحبات المسك الهندي الخاص بحضرتهن، بينما كانت العجوز وناسة هي من يتحرك جيئة وذهابا وكأنها في العشرين من عمرها،كلما نطقت الكاهنة بشئ الا ورددته وكأنها تلميذة نجيبة، لم تستطع فهيدة أن تسمع جيدا ما يدور لبعدها عن المكان، ولكنها فهمت أن الكاهنة متمكنة وتأتي بما يسر من الأخبار لاستبشار أم الكبراء خصوصا بما تقوله لها، وتبسمها الذي يكشف عن أسنانها البراقة من حين لآخر، لقد بدأت تشعر بشئ من الطمأنينة والفرح يغمرانها وهدأت نفسها قليلا.

لم تمر الا لحظات حتى دخل السيد فاتك، وقامت الزوجات للتحية، بينما جلس الى جانب الكاهنة التي احتضنته وأحنت صلعته تباركها، ثم أمرت بتعليق عمامته على بطن كل واحدة من السيدات وقتا وجيزا ليلدن الذكور كل سنة، أما هو فحمل يده الثخينة للتحية، فتلقفتها الكاهنة وأخذت تقبلها وهي تتلو تعاويذها المبهمة، نظرت اليه فهيدة نظرات حانقة، وتمنت لو دفنت صلعته في تلك النار الملتهبة كما دفن ابنتيها حيتين، تمسكت بعمود الباب وضغطت على خشبه الردئ بقوة حتى كادت تفتته وهي تتابع المشهد، وبعد وقت وجيز بدأت الكاهنة تحمل أمتعتها معلنة أن ملوك الجن قد أدوا مهمتهم وينتظرون الاكرام، أرخت خمارها وراء رأسها لتكشف عن جيد أحرقته الشمس اللافحة وبدا أثر قلادة كانت تتقلدها بارزا ومنغرزا في جلدها المحترق، هرعت فهيدة الى قرارها، وتظاهرت بتحريك الرحى التى لا تكاد تفارقها، وما هي الا دقائق معدودة، حتى سمعت الكاهنة تخترق المكان نحو الخارج وصلصلة خلاخلها تسابق نبضات قلبها الذي يكاد يتوقف عن الخفقان من الفزع والفرح في آن واحد، الفرح بقدوم الكاهنة والخوف من معرفة جنس الجنين، دخلت عليها العجوز مسرعة وأمسكت بيدها وقالت بصوت خافت:

-فهيدة.. فهيدة.. لا تخافي، تقدمي فقد طلبت منها أن تسرع.

دخلت الكاهنة وهي تنظر الى فهيدة بازدراء كبير، ثم طرحت على بطنها ثوبا أحمر دون أن تكلمها، وأخذت ترمي بالصدف ثم تجمعه، ثم ترمي به تارة أخرى فتعيد جمعه، وفجأة ارتعدت فرائصها

،وحلقت عيناها نحو السماء كأنهما جمرتان مشتعلتان زادتا فهيدة فزعا على ما هي عليه من المحنة والكرب ثم صرخت:
-ذكر.. ذكر.. ذكر..ذكر.. ذكر..

طارت العجوز من الفرح وأسرعت الى اغلاق فم الكاهنة حتى غاصت يدها بين شفتيها الثخينتين، وهرعت نحو الباب لتنهي فصول الزيارة.

بقيت فهيدة متسمرة في مكانها لا تحملها قدماها لتخطو خطوة واحدة، كل ما يطرق مسامعها هو قول الكاهنة:" ذكر.. ذكر"...

لم تشعر الا وهي ترددها بصوت خافت ودون توقف، وفجأة، علا صوتها واشتد صراخها وهي تكرر: "ذكر.. ذكر"...

ظلت ترددها حتى فقدت وعيها ولم تشعر الا وفاتك ومعه أهل الدار من حولها ينظرون اليها باستغراب، أفاقت فحذقت في عيونهم جميعا دون أن تنبس ببنت شفة، تملكها خوف لم تشعر بخوف مثله من قبل، فقررت أن تتظاهر بالنوم والاغماء وكلها أحاسيس مضطربة بين اخبار السيد بالبشرى، وتوقعها ضربة من سيفه على عنقها وهي ممددة على الأرض بتلك الطريقة المهينة، كان ما بدا من جمالها يشعل غيرة أم الأسياد فقالت في غرور كبير وهي تمسك بظفائرها السميكة:
-مابالنا أصبحنا على هذه الحال المضطربة؟ العبيد والاماء يتجرأون علينا و... و... يزعجون مجالسنا؟
فتحت فهيدة عينيها والتصقت بالجدار الطيني المتهالك وقد تملكها الخوف وسقط لسانها، خصوصا عندما وقف فاتك حافيا أمامها وصلعته تتلألئ وتتدلى منها تمائم الكاهنة، فأغمي عليها من جديد وظنت أنها ميتة لا محالة، لم ينقذها الا وصول العجوز مسرعة وهي تردد:
-مولاي.. مولاي.. البشرى... البشرى يا مولاي.. جنية تركتها الكاهنة من ورائها لتخبرك أن مولاتي فهيدة حامل بذكر، أما سمعتها يا مولاي تنادي عليك مؤكدة: "ذكر.. ذكر"...
تهللت أسارير فاتك وقال:

-أجل...أجل... سمعتها... سمعتها ولبيت نداءها العظيم، لذلك أنا هنا..
يامرحبا.. يا مرحبا بالجنية المبجلة، يامرحبا بضيوف كاهنتنا العظيمة، أحضروا الآن شاة واذبحوها هنا لنكرم ضيوفنا.
أفاقت فهيدة من من غفوتها المفزعة وسمعت سيدها يقول:
-أيها العبيد... أنا والجنية نأمركم بأن تحملوا فهيدة الى دور السيدات، أصلحوا من شأنها... هيا... ناولوها طعاما وشرابا واعتنوا بها حتى تضع من يرفع من قدري، اجعلوا أمامها الها مهيبا ليحمي ابني في بطنها حتى يخرج الي، لايحضر ضيوفنا من الجن الى هذا المكان الوضيع، نحن دأبنا على اكرامهم والرفع من قدرهم.

لم تصدق فهيدة ما رأت ولا ما سمعت، وتخيلت أنها في حلم جميل وسكنت تماما، لقد عاد كل عظم إلى مكانه وكأن الدم قد تختر طيلة فترة الحمل وجعلته كلمات السيد يتدفق الآن في كل عروقها، رمقت بشكل خاطف السيدة وهي تحني رأسها تحية للجنية، وترسل نظرات الاحتقار إلى فهيدة التي ستنافسها في جمالها وإقبال السيد عليها.

كانت العجوز تأسف لضياع المكافأة منها، اذ خططت أن تكون هي أول من يخبر السيد بالخبر السار، ولم تكن تريد أبدا أن تسير الأمور بتلك الطريقة السريعة، ودت لو كانت هي من يزف البشرى، ولكن الفرصة أفلتت من يدها فأخذت تنظر الى فهيدة نظرات حانقة.

وماهي إلا ساعات قليلة حتى وجدت فهيدة قدميها تحملانها بصعوبه الى اقامة الأسياد بجوار أمهات الذكور.

كان السيد فاتك منهمكا لأيام في ترتيب أمور القبيلة وأحوال رعيته قبل سفره، وأرسل من يتتبع حركات بني رافع ويأتيه بكل أخبارهم حتى يثأر منهم لنفسه حيث تجرأوا على معارضته أمام الملأ، ولالهه المقدس المسروق الذي لم يظهر له أثر وأكدت الكاهنة أنه عندهم، كما أمر الخدم بالاهتمام بالسيدات اللواتي قرر أن لا يرافقنه في السفر، ومعهن فهيدة التي ستضع عما قريب، لم ينس أن يصرف مسروق الذي كان مكلفا بحفر الحفرة التي ستدس فيها المولودة الأنثى قبل أن يعلم أحد بولادتها ويلحقه عارها، وفي يوم السفر كان قد أكمل الاستعدادات، وتوقفت أمامه قوافل التمر والمتاع يتفقدها واحدة واحدة ،وهو يتوقع أن تكون أكبر فخر لقبيلته أمام القبائل الأخرى، صفوف متراصة من حمر النعم والفرسان الجياد، يحوم حولها العبيد والاماء من كل مكان، كل واحد يقوم بمهمة معينة، تغطي رؤوسهم الأعلام الملونة والمصحوبة بدق طبول النذور والعطايا المتنوعة التي تشد بها الرحال الى مكة قبلة العرب منذ عهد بعيد.

حان وقت الوداع، فوقفت فهيدة مع السيدات بثوبها القطني البهيج، وبدت أجمل منهن جميعا ،اقترب منها السيد فاتك وضرب خلخالها بغمد السيف مغازلا وقال:

-لقد قررت أخيرا أن تكوني امرأة عاقلة، اذا أتتك هذه الجنية ثانية فاقرئيها مني السلام ،وأخبريها أنني سأعود بعد موسم الحج، لا تنسي...هه... أكرمي وفادتها واذبحي لها دون أن تطلب منك ذلك، سأنتظر أخبارا سارة من عندك يا... يا أم الوليد.

أحنت فهيدة رأسها وهي التي تعودت على انحناءة العبيد طويلا، ولم تكن ترى الا نعل فاتك وأقدام السيدات من حوله يودعنه، انطلقت أشعار المدح والثناء مترنمة، ودقت الطبول وزفت الأهازيج، وتقلد

الحراس سيوفهم وحملوا نبالهم يتقدمهم فاتك على فرسه الذي تطوف حوله الأعلام من كل الألوان.

عادت فهيدة مسرورة الى مخدعها الخاص، ونعمت بأكل التمر الجيد والخبز دون طحنه أو عجنه، لم تكن تنعم بأكل اللحم المشوي الا حين يقوم أحد العبيد مرة أو مرتين كل سنة بحيلة ماكرة فيرمي جمرة ساخنة في أذن جمل سمين، ليحدث أصواتا وحركات كالذي به جنون، حينها يتطير منه فاتك ويأمر بعقره ليطعمه العبيد، تستعد فهيدة مع نزيلات الدور الخلفية للمشاركة في الوليمة الكبرى ،ويبدأ الشي ليلا ونهارا، ويجفف الباقي في الشمس ثم يخزن لما يلي من الأيام، انها الوليمة الوحيدة التي يجبر فاتك على دعوة ضيوفها مرغما.

كانت فهيدة قد نعمت بالدخول الى مخدع سيدة نساء فاتك من حين لآخر، وتناولت فيه نبيذا فاخرا، غرفتها مبهجة تزينها الفرش الناعمة في كل مكان، أما أريكتها التي تجلس عليها فهي أنيقة ومعطرة ،تتمتع بالاستلقاء عليها للحظات فتغمرها نشوة كبيرة، سيما حين يأتي بعض أسياد القبيلة الذين تركهم فاتك لخلافته والسهر على شؤون العشيرة لتفقد أحوالها من حين لآخر، والسلام على الجنية التي ترعاها، يأتيها العبيد والجواري بكل ما تحتاجه قبل وضعها.

تمددت على فراش السيدة وهي تتمثلها أمامها قبل السفر حين لبست أجمل ثيابها ووضعت نقابا حريريا على وجهها ،ثم دخلت هودجها المزين كأنها طائر يدخل عشه، فهي أم الأسياد وبنت الأكابر التي لا يصل الى مكانتها أحد، وهي المرأة التي يحبها فاتك أكثر من غيرها لفصاحتها ودهائها وخيلائها الذي يرفع من شأنه، تذكرت فهيدة أنها قبل السفر غارت من جمالها وودعتها وداعا باهتا وأوصتها أن لا تتجاوز المكانة التي وضعها فيها السيد فاتك، ولولا تلك الجنية التي نطقت على لسانها، ما ألقت لها بالا.

لم تكن فهيدة لتتأثر بذلك الازدراء، لأن مشاعرها أخذت مناعة ضد كل أنواع الحقارة والذل لكثرة ما تعرضت لهما وهي في دور الاماء، لذلك فقد تقدمت وقبلت يد أم الأسود وأدارت المبخرة من حولها لعل

الجنية التي أتتها يوم حضور الكاهنة تباركها، تذكرت كيف كان بصرها يكاد يزيغ حين ودعها فاتك وهي في مخادع السيدات، ثم سرح بها خيالها منتشيا، منسابا ومتدفقا في اطمئنان تام نحو عالم الخيال الواسع، ولم تشعر الا والعجوز تمسك بكتفها بعنف وهي تقول:

-ما هذا الذي أنت فيه من النعمة يا فهيدة؟...ماهذا... هههه... تذكري أنني ولية نعمتك، أنا سببها... أسمعت؟... لا تنسي فضلي عليك حين أنقذت الموقف وقد كان سيدي يهم بالفتك بك، لقد أذن لي أن أبقى الى جانبك حتى تضعي مولودك سيدي الوليد.

نظرت اليها فهيدة مشفقة وقررت أن لا تكترث لثرثرة عجوز ماكرة وفتانة أيضا، الا أنها تقدمت نحوها وجذبتها وقالت:

-أ تسمعين ما قلت؟ لا تنسي أنني ذات فضل عليك.

-أرجوك يا خالة، لا تذكريني بما مضى ،ودعيني أملي عيني بهذه النعم من حولي، لهفي على أولئك الاماء اللواتي تركتهن في تلك الدور الحقيرة، لهفي عليهن...

حذقت العجوز مستغربة وقالت:

-لاشأن لك بهن، ما رأيت سيدة تتحدث عن الاماء بهذه الرأفة، الآلهة جعلتنا طبقات وطوائف، وهي من قررت أن تحملك الى هنا حين تمسحت بأعتابها توسلت اليها.

نظرت اليها فهيدة ساخرة وقالت:

-توسلت اليها؟ أوتعتقدين أنني فعلت ذلك حقا؟

صرخت العجوز غاضبة وقالت وهي تضرب عصاها بالأرض:

-لو لم تقرر الآلهة انتقالك من تلك الدور المهينة لما كنت هنا، أسمعت؟ ماكنت ولا كان حملك بسيدي الوليد.

ابتسمت فهيدة ابتسامة المنتصر وتذكرت فورا اهانتها الكبيرة لاله فاتك وعجزه عن الصعود من البئر، وكتمت ضحكا وسخرية بداخلها وقالت في نفسها: "لعل اهانتي له هي التي جعلته يمنحني ذكرا وأنطلق نحو الحرية والكرامة من الباب الواسع، هههه... هههه... لعله يحترم من يستعمل العنف معه كما يفعل هو دائما معي."

في مكان منعزل من الغرفة انكمشت العجوز نائمة ،فهي تحضر كل حين لتفقد فهيدة في انتظار مجئ اليوم الذي تضع فيه مولودها، انه الخبر السعيد الذي ستجني من ورائه الكثير.

جن الليل في احدى الليالي وحمل اليسير من آلام المخاض الى جسد فهيدة الذي بدأ يتحسن ويصح، كانت كل طلقة وجع تستقبلها كأنها ضربة سيف تفك قيود العبودية وترفعها الى الحرية الكبرى، كما كانت محطات الألم بالنسبة اليها كالأوسمة والنياشين على صدرها، تتمنى أن يشتد ويشتد حتى يمزق أحشاءها ويخرق بطنها ويخرج بصك الحرية الذي انتظرته منذ زمن طويل، وبذا فكلما تألمت الا وعلا ضحكها بدل الأنين.

مرت الأيام سريعا وتلاحقت علامات الوضع، كما أنها بدأت تشعر بالشفقة على الاله الذي دسته في البئر ومنحها ذكرا، فأخذت تبالغ في التمسح بالآلهة الصغيرة من حولها وتطلب الاعتذار والصفح.

في ليلة قمرية مضيئة، اشتد عليها ألم المخاض، فانزوت في مكان من غرفتها تتألم ألما ممزوجا بالفرحة الكبرى، لأنها ستضع بعد ساعات ذكرا يكون تاجا فوق رأسها الى الأبد، كانت العجوز هي من ينفرد بالبقاء الى جانبها، بينما خلد جميع من في الدار الى النوم، وفي ساعة جد متأخرة كانت صرخات المولود تنطلق، تهللت أسارير فهيدة، بينما تلقفته العجوز وناسة وهمت بلفه في الثوب، الا أنها أسقطته فجأة أرضا وصرخت:

-ويحك يا فهيدة !... يا... يا ويحي أنا أيضا!
-ماذا حدث يا خالة؟ ماذا هناك؟
-يا للويل والثبور !... إنها.. إنها أنثى !...أجل.. أجل..
إنها أنثى...!

صرخت فهيدة وقالت:
-ما الذي تقولينه؟...هل جننت؟...عيناك فيهما شئ... هل أنت متأكدة؟... يا للمصيبة!...... يا للمصيبة !... والآلهة؟... والكاهنة؟ !
مدت يدها نحوها وقالت:
-ناولينيها لأتأكد بنفسي.

انتزعتها منها العجوز بقسوة، وأدخلت قماشا في فمها حتى لا يسمع صراخها وهي تهم بخنقها، الا أن فهيدة استجمعت قوتها ونهضت وألم الوضع ما يزال يمزق أحشاءها، فأسقطت العجوز أرضا ثم وضعت قدمها على المصباح الخافت ليعم الظلام، وفي لمح البرق، جذبت اليها ابنتها وضمتها الى صدرها وهرعت نحو الباب هاربة ودماء مخاضها تملأ المكان كأن مجزرة رهيبة حدثت للتو في المكان !

وبعد لحظات من الوضع وجدت فهيدة نفسها تخترق الصحراء الساخنة وتجري لا تدري أين تتوجه، أدخلت ابنتها في ثوبها الخفيف والصقتها بجلدها، ثم أسلمت ساقيها للريح، هرعت العجوز نحو الحراس وهي تتلمس الطريق في الظلام ثم أخبرتهم الخبر، فتفرقوا في كل مكان يبحثون عنها، كانوا يعلمون جيدا أن فاتك سيقتلهم اذا لم يقبضوا عليها، أما هي فلم تتوقف الا عندما خارت قواها تماما فجلست في سفح جبل من جبال مكة الصخرية، كانت البنية تتحرك وتحاول أن تتحسس أمها فاتحة فمها الصغير، تحدث أصوات أنين من حين لآخر كأنها تشكر أمها التي أنقذتها من فتحة التراب التي كانت ستبتلعها وهي حية، حملتها فهيدة وقبلتها ثم مزقت ثوب رأسها ولفته من حولها، واستأنفت الجري على غير هدى وهي متيقنة أن حراس فاتك سيبحثون عنها في كل مكان، لم تعبأ كثيرا بالألم الفظيع الذي كان يمزق أحشاءها، وانصب كل همها على الهروب والخلاص بالابتعاد عن القبيلة ومحيطها قدر المستطاع وقبل طلوع الشمس حتى خارت قواها مرة أخرى، فسقطت على الأرض وبنيتها ملتصقة بصدرها، كانتا كأنهما قطعة واحدة.

لم تستفق فهيدة الا وهي في خيمة امرأة كريمة أوفدتها وأحسنت اليها ،ناولتها لبنا وتمرا، كان كل همها ارضاع صغيرتها الملتصقة بصدرها الدافئ، نظرت اليها وقالت بصوت حزين:
-أنا خائفة... أنا خائفة...
-لا تخافي، أنت في أمان..لا تخافي يا بنيتي.
-يا بنيتي؟ !... بنيتي !... ما أكرمك من امرأة ! هذه الكلمة لم أسمعها من قبل.

ردت المرأة بصوت حان:
-أرى يا بنيتي أنك منهكة جدا، لا زالت علامات الوضع تسطر الألم على محياك.
-أنقذيني يا أماه، لا يعلمن أحد أنني هنا... هذا هو كل ما أطلبه منك.
-ما خطبك يا بنيتي؟ ما الذي رماك في هذه الصحراء الموحشة؟ لقد وجدك ابني سهل على مقربة من مكان موحش، عاد الي فصحبته

ولفيناك في جلد بقرة لنحملك، فاذا أنين رضيعة ينبعث من صدرك، علمت حينها أنك...

-لا.. لا... لست كذلك.. أرجوك يا أماه.. أشعر بقشعريرة تشملني.. لا تسأليني عن شئ، الرحمة هي ما أنشده... الرحمة.. أجل، الرحمة.

كانت المرأة الرحيمة التي استقبلت فهيدة من النساء الكريمات اللواتي نذرن أنفسهن لخدمة الحجاج الذين يتوجهون الى مكة كل عام، فخيمتها هي مأوى الذين تتقطع بهم السبل أو تختفي معالم الطريق أمامهم بسبب الرمال الزاحفة، امرأة كبيرة في السن، ولكنها قوية البنية، فصيحة اللسان، تعظم الحرمات وتتقفى بقايا دين ابراهيم، وتقف بنفسها على الاكرام والضيافة، منذ سنوات وهي تقف على ذلك الثغر وتحط كل سنة في مكان من أطراف مكة، تقطع أميالا جاهدة في توفير الماء البارد للمتوجهين الى موسم الحج، تزرع الأمان في غابة من قطاع الطرق والمتقاتلين، أعلت على فسطاط خيمتها علم الضيافة يظهر من بعيد لكل من قصد مكة جهة الشمال، وجعلت لذلك نوقا وأعنزا تحلبها، حتى الأكواب الطينية التي تسقي بها ضيوفها جعلتها بأسماء القبائل المحيطة بمكة تقديسا وتعظيما.

توسلت اليها فهيدة والى أبنائها أن يجيروها ويحتضنوها دون أن تفصح لهم عن سرها،كل ما سألتهم هو أن لا يخبروا أحدا بوجودها في المكان، وكذلك كان، فأبناء المرأة الخمسة من الرجال الفرسان الذين يتصفون بحسن العهد والوفاء، ولم يأتوا الى ذلك المكان الا لاغاثة المشردين واستقبال المسافرين والتائهين.

بقيت فهيدة أسبوعا كاملا وهي مختفية تتلفع بغطاء خشن كلما تبادرت الى سمعها أدنى حركة، تغمرها سعادة كبيرة وهي تنعم بارضاع صغيرتها التي استوى أمرها وبدا أنها تشبه أباها تماما، كانت تحدثها كلما جن الليل وتلثم على وجنتيها قبلات الأمومة التي طالما لثمتها على التراب الذي دست فيه احدى ابنتيها وراء خيام العبيد، لم تصدق أنها اسطاعت المغامرة بالفرار والقرار في مكان آمن تنتشي فيه بضم ابنتها الى صدرها كل حين ،انها السعادة التي طالما حلمت بها، وهي السعادة نفسها التي تنكسر بداخلها كلما تخيلت

أن جنود فاتك سيقفون أمامها ويقتادونها ليقطع لحمها في القبيلة ألف مرة.

لم تمر الا أيام قليلة حتى خارت قوى فهيدة، ومرضت مرضا شديدا لم تعد تقوى بعده على القيام حتى لخدمة نفسها، فضلا عن حمل ابنتها التى اختارت لها اسم هند، وهو اسم ابنتها التي دست من قبل حية في التراب بعد شهر من ولادتها ،أحضرت لها المرأة مرضعا من قبيلة مجاورة، واعتنت بصحتها التي كانت تنهار يوما بعد يوم، تبين فيما بعد أن بقايا أحشائها علقت برحمها بعد المخاض حتى تعفنت واشتدت رائحتها وأصبحت لا تطاق، اضطرت المرأة أن تنصب لها خيمة خارج المكان، ولم تكن تدخل عليها الا وقد غطت أنفها وفمها بكمامة حتى لا تشم تلك الرائحة الكريهة، دخلت عليها ذات صباح فناولتها كوب لبن لم تستطع الامساك به، وفي مساء ذلك اليوم مدت اليها يدها وقالت بصوت خافت:

-أوصيك أيتها المرأة الطيبة بهند، اعتني بها فاني أراني ميتة لامحالة، هذه الآلهة خذلتني... خذلتني خذلانا لن أنساه... أطمئن كثيرا الى قلبك الذي يفيض رحمة، ابنتي بين يديك، هذه الآلهة الغادرة... لا أحب أن أستودعها ابنتي، وأتمنى... أتمنى أن لا تركع لواحد منها أبدا، كنت أخاف أن أعيش أنا وتدفن هي، وها قد انقلب كل شئ.. انقلب كل شئ.

ردت المرأة بصوت حزين:

-الموت يا أم هند راحة لك، فهذا النتن لن تطيقيه أكثر مما فعلت، أرى أنك امرأة شريفة اصطبغت صبرا وقوة، كما أن حليك وملابسك تضفي عليك وقارا لولا هذه الدماء التي جفت على أطراف ثوبك من كل مكان.

-لا تذكريني يا أماه... فقد... صعب على لساني البوح... صعب عليه أقل من ذلك.

تنهدت حتى حشرج صدرها، كان لسانها قد ثقل عن الكلام، وفي صباح اليوم التالي، فاضت روحها، وحفر أبناء المرأة قبرا في الرمال جعلوه مثواها.

لم تكن المرأة بحاجة الى تلك البنية الصغيرة ولا هي مقبلة على رعايتها، ولكنها في نفس الوقت تحب تنفيذ وصية أمها بالعناية بها، اضافة الى أن المرضع تطلب أجرا ليس في طاقتها، فطلبت من أحد أبنائها أن يتدبر الأمر فقال أكبرهم:
-نبيعها بأي ثمن.

قالت الأم مندهشة :
-هذا ليس مما عرفته عنكم يا أبنائي البررة، لقد ربيتكم على حسن العهد والشهامة والوفاء.

رد آخر:
-كلا..كلا.. لن نفعل، وحتى لو بعناها فسيكون ثمنها زهيدا، ماذا نفعل بصبية ترقد المئات مثلها تحت التراب؟

قالت الأم بصوت حاني:
-أرجوكم أن تبحثوا عمن يرعاها حتى تكبر، نحن سنرحل من هنا ومقامنا مؤقت، لم لا ترون العابد النصراني قرب مكة جهة طريق الشام؟ ربما أحسن اليها، لا تنسوا أن أمها أوصتنا بها قبل وفاتها.
-ربما لو كانت ذكرا لحملناه الى ديارنا لننتفع به اذا صار غلاما، لكم نحن بحاجة الى من يرعى أغنامنا.

رد آخر:
-أنا أيضا أرى أن هذا العابد سيأخذها منا، فهو في كهفه لوحده من سنين طويلة، وربما آنسه صراخها في وحشته.

ضحكوا جميعا وقالوا:

-سنقدم له هدية لم ير مثلها في حياته هه.. هه، الأهم أن وصية أمها ستنفذ.

قالت الأم وهي تقبل البنية الصغيرة:

-سامحيني يا هند... سامحيني يا بنيتي، أنا امرأة كبيرة السن ولا أقوى على الاعتناء بك.

-لا عليك يا أماه، سنتدبر أمرها، لقد أنقذناها من الموت في حضن أمها تحت الجبل.

-أرى أن تستودعها ذلك الراهب المعتكف في كهفه ،رأيته مرة حين جلبت الماء من بئر الجبل فاطمأن قلبي، كان واقفا خارج الكهف يناجي ربه ،فرأيت عليه علامات العباد المنقطعين، وأرى أنه أحسن من يتولى هذه الصغيرة، سيحملها أحدكم ويضعها على فوهة الكهف دون أن يلفت نظر أحد.

وفي مساء ذلك اليوم، لفت المرأة الصبية في قطعة من ثوب أمها الهالكة، وعقدت أطرافها حتى يتسنى لابنها أن يحملها بسهولة، ودفعتها اليه وهي تبكي بكاء مريرا وكأنها تعي ما يجري من حولها، وما هي الا لحظات حتى تخلص منها ووضعها أمام كهف العابد، ثم ذهب يترقب من بعيد حتى لا يراه أحد.

وبعد وقت وجيز أخذت الصبية تصرخ دون توقف، فخرج الراهب مندهشا وهو ينظر اليها وهي ملقاة على الأرض، كان الرجل الذي وضعها أمام الكهف يترقبه وقد رص وجهه بين صخرتين عظيمتين لينظر ما سيكون من أمرها، كل ما يخشاه أن يفترسها كلب ضال أو حية هائمة، فاذا الراهب واقف يصوب بصره نحوها تارة ويمده بعيدا تارة أخرى آملا في أن يرى من وضعها، شدت صورته قلب الرجل لما عليه من الهيبة والوقار، وأدرك أن أمه كانت محقة في اختياره لرعاية الصبية، فهو رجل طويل القامة، عريض المنكبين، عليه لباس شديد السواد، وعلى صدره صليب كبير مذهب، يحمل بيده سبحة تكاد تلامس الأرض، لحيته تملأ صدره العريض وتجعل جبينه يبرز كأنه جزء من فلاة أشرقت عليها شمس الصباح باكرا، تفرس

من بعيد في ملامحه مليا، ومكث في المكان حتى اطمأن الى أنه سيتولى أمرها، ثم قفل راجعا نحو خيمة الوفادة.

ظل الراهب واقفا وكله حيرة واندهاش، ثم انحنى مترددا وحمل الرضيعة وهو ينظر يمنة ويسرة دون أن يظهر أثر لمن وضعها أمام كهفه وغادر المكان، قرر أن ينزل ويبحث عمن مر من المكان، خطا خطوات في كل الاتجاهات وهو يحمل الصبية لعله يعثر على أثر، ثم عاد الى باب كهفه وقد لعبت الحيرة بأفكاره، وفجأة، صوب نظره نحو السماء ومكث طويلا وهو يحرك شفتيه مناجيا ربه، ضمها الى صدره ودخل الى الكهف.

شعر الرجل الذي وضعها أنه أنهى مهمته ووفى بعهد المرأة، وتيقن أن الصبية في مكان آمن، فهو مطمئن لأن هذا العابد لا يؤذي أحدا ولا يخرج من كهفه الا اذا ناداه أحد الرعاة لأمر هام، أو اذا أراد أن يرسل شاته لترعى حيث يرعون،كان العرب من حوله وثنيين أميين لا يعرفون عن أهل الكتاب الا القليل، ومجيئه من الروم الى الجزيرة العربية ليس الا لاستقبال النبي الخاتم الذي بشر به عيسى وموسى من قبل، كان راهبا مسالما في كهفه، يعرف كيف يتخلص من قطاع الطرق حين يهجمون على المارين من حوله، ويهدي الى التوحيد من يسأله عن الهه الذي يعبده، كما أنه يحدثهم عن معبوده الذي لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وأنه هو وحده خالق كل شئ ومليكه، قد يصنع طعاما لبعض القوافل المارة اذا أتاه مدد من بعض رهبان الروم الذين ينتظرون أن يحمل لهم بشارة النبي الخاتم الذي لا نبي بعده، والذي سيختم به الله الرسالات كلها ويظهره في جبال فاران بمكة حسب نبوءات عيسى، أحيانا كان يكرمهم ثم يقصد خلوته من جديد.

لقد كان جرجيس راهبا وديعا لا يخرج من كهفه الا لماما، كل همه أن يكون في الموعد مع هذا النبي الخاتم الذي قال عنه عيسى: " انه أخي "، يتحسس أخبار القرى من خلال مرور القوافل التي نادرا ما يصعد اليه بعض أصحابها للحصول على الماء والزاد، فيبادلهم أحيانا سلعة بسلعة، أو يكرمهم ان طمع في هدايتهم للاله الخالق، أو بدا له أنهم من

العرب الأصلاء الذين ما زالت بعض علامات الحنيفية الابراهيمية تصبغهم، كان تشبتهم بعبادة الأصنام يقلقه، ولكنه يتحفظ كثيرا وهو ينصحهم أحيانا حتى لا تسبق سيوفهم هدايتهم، لقد حدث مرارا أن قام بدفع الصخرة على باب كهفه حين يبدأ الاقتتال ويشتد اثخان العرب في بعضهم البعض لدرجة الفناء أحيانا، لم يكن منظر سبي النساء والأطفال بتلك الطرق المهينة بعد الحروب يروقه، ولا تذكره تلك الأحداث الأليمة الا بما يحدث في بلاد الرومان نفسها، فهو يلعن دائما العطش الى الدم الذي ملأ قلوب أبناء آدم منذ أول ظهور للانسان في الأرض، ولم يقبل على الرهبانية الا ليخدم الاله كما يعتقد، حتى شدد على نفسه وحرمها الزواج والعيش الى جوار أهله وخاصته، بل انه تطوع للحاق بأرض الجزيرة العربية رجاء أن يدرك النبي الخاتم ،فيكون أول من يبشر مجلس الرهبان والأساقفة بقدومه ويحوز شرف السبق والمكانة العالية في دلالة قومه على نبي الزمان الذي يختم به الرب الرسالات، كان ثلاثة من اخوانه قد استقروا في الطرف الشمالي والشرقي لجزيرة العرب للغرض نفسه، يترقبون وينتظرون ويستفسرون عن نبي الزمان، ويعتزلون في صوامعهم للعبادة والترقب والانتظار.

كان جرجيس أكثرهم شرفا وحكمة، رحيما، طويل التأمل والاستغراق، ولذلك فقد حمل الصبية الرضيعة ودخل كهفه ثم جلس حائرا، بينما هدأت هي في حجره وأغلقت عينيها البريئتين.

أخذ يتساءل عن سرها، ويفترض افتراضات كثيرة زادت من حيرته، وطرح عدة تساؤلات لم يجد لواحدة منها جوابا، وكان أكثر ما غلب على ظنه أنها نجت من الوأد، وأن هناك من جاءه بها لاجئا مستجيرا فارا بها من الموت الى الحياة، شعر فجأة بدموعه تنهمر ساخنة على خده وهو يتخيل صورا لبعض العرب الذين يدسون أمثال تلك الرضيعة حية تحت التراب،أمسك بأصابعها الدقيقة يتأمل بديع صنع الرب الخالق كيف سواها، تفرس في عينيها وملامحها وكيف أكمل الخالق بهاءها، فوجد نفسه يلعن من يدس هذه الصناعة الباهرة دون رحمة تحت التراب ،لم يقف يوما شاهدا على تلك الجريمة الشنيعة،

ولكنه علم أن ثرى تلك الصحراء الشاسعة يضم أنين الكثير من الموأودات البريئات، أطلقت الرضيعة صيحة خفيفة جعلته يفيق من شروده ويسبح الرب الذي أذن لتلك الصيحة أن تدوي في ذلك الكهف المنغرس في سفح الجبال الشاهقة، انه كهف لم يسكنه أحد من قبل، اذ لم يكن موجودا الا لما جاء جرجيس وأعطى دينارا رومانيا ذهبيا لمجموعة من الأعراب ليعينوه على نحت مسكنه الصخري في تلك الصحراء المقفرة، وهو نفسه من اختار وجهته نحو شروق الشمس وغروبها، حتى يتأمل بديع صنع الرب الخالق كيف يكور الليل على النهار ويذهب بالضياء الصافي ليأتي بالليل المظلم، وهاهو الرب قد أتاه بآية عظيمة الى أمام كهفه، أخذها فرحا وهدأ من روعها وناولها تمرة طرية تمتص حلاوتها رويدا رويدا، كان يمسك بها ويداه ترتعشان ،فتملكه فجأة شعور الأبوة والحنان، لكم تمنى من قبل أن يكون أبا لولا أنه ضغط على فطرته واختار الرهبانية، لقد قطع بها نسله الى الأبد، وها هو يجد نفسه أبا في كهف مقفر دون أن يكون على استعداد نفسي لذلك، قرر مترددا أن يفكر في طريقة ما للتخلص من البنية ،فما عساه يفعل برضيعة تشغله عن الانقطاع لعبادة الرب ليلا ونهارا؟... ظل يقرر ويتراجع عن قراره حتى أعياه التفكير.

قرر في نهاية المطاف أن يسلمها للراعي الذي يتولى شؤون شاته، ورأى أن هذا هو المخرج الوحيد الذي سيجعل ضميره مرتاحا لأنه يراه كل يوم... حك رأسه قليلا وهو يفكر جديا في طريقة يقنعه بها ليتولى رعايتها... مكث مليا وهو يحتضن قراره بكل ما أوتي من قوة، الى أن هجم عليه التوجس والريبة، فهو لا يثق كثيرا بعمرو ويخشى أن يكذب عليه ويئدها ويدعي موتها، نظر اليها وقد أغمضت عينيها الصغيرتين المتبثتين على وجه وضئ يشع براءة، فداهمته دموع فياضة وغمره الحنان الأبوي، وهجم عليه البكاء حتى علا نحيبه في سكون ذلك الكهف الصامت داخل تلك الصحراء القاسية التي لا تدمع لوأد أنثى تئن في بطنها حية حتى تفارق الحياة، لقد وجد نفسه يهتز اهتزازا أيقظه من الحالة التي هو فيها، فافترس قلبه شعور بالفزع والرعب حين استحضر احتمال علم رهبان الروم باحتضانه بنية صغيرة في كهفه، وهم الذين ينتظرون بشارته على أحر من الجمر

ويبجلونه تبجيلا، ماذا سيقول لهم؟... بل ماذا سيقول لأولئك العرب الذين يقدرونه أحيانا لكونه تفرغ راهبا معتزلا لا يؤذي أحدا ومرتبطا بالسماء أكثر من الأرض، أيكون قد ولدت له سفاحا أم أنه سرقها؟... ماذا يقول عنه اليهود في يثرب الذين ينتظرون قدوم النبي أيضا ويتعللون أنه سيكون منهم ولا يمكن أن يكون من هؤلاء الضلال من النصارى والعرب الوثنيين؟... لقد عيروا مريم العذراء سابقا أنها بغي، كيف يمكن أن يخبرهم بأنه لم تولد له بنت وهو الذي يشاركهم هموم أهل الكتاب الانتظارية في جزيرة العرب ويعرفونه جيدا ويعرفون همومه، تمنى لو علم من وضعها أمام كهفه حتى يعيدها اليه ويرتاح.

تزاحمت الأفكار والخواطر في ذهن جرجيس حتى كاد يجن، وقرر أن يسلمها لأول قافلة تمر من المكان، فقد عزم على أن يهزم فطرة الأبوة التي بدأت تنتعش في قلبه بمجرد حمله لتلك البنية التي نامت في حضنه نوما كما هزم فطرة الزواج من قبل، لقد قرر أن يقسي قلبه ويتحول هو الآخر الى صخرة من تلك الصخور التي تحيط بكهفه، ولا يسلمها للراعي الذي سيحدثه عنها كل يوم.

قام فوضعها في مكان نومه، وذهب يتأمل من الثقب أفق الصحراء الذي تحجبه تلك الجبال السوداء من كل مكان، يناجي ربه حائرا، أيمسكها على هون أم يدسها في النسيان؟... أية فتنة هذه التي حدثت له وجعلته حائرا الى الحد الذي عجز عن أن يجد حلا؟... ظل يتضور ألما ويناجي ربه مستغيثا أن يساعده في العثور على مخرج، وفجأة، أطلقت الصبية صراخا قطع عليه مناجاته فعمد الى شاته يحلبها، بدأ يحاول التهدئة من روعها وارضاعها بقطعة قماش قطنية ناعمة يبللها باللبن، ثم يجعلها تمصها ببطئ شديد، لم يشعر الا وعيناه تذرفان من جديد ،فضمها الى صدره حتى كاد أن يوجعها بصليبه المتدلي، أصبح يشعر أنها ابنته حقيقة وأن الرب هو الذي أرسلها اليه، فبدأ يمرر أصبعه على وجنتها الدافئة ويبكي حتى وجد نفسه يصرخ كالطفل الصغير وقد اختلط عليه الخوف والأمل والفرح في آن واحد، فهو لم يحمل أطفالا منذ ثلاثين سنة عندما كان يعمدهم في الكنيسة في أرض

الروم، كان شابا يافعا، محاطا بهالة من النصارى شغلهم الشاغل ترتيل وصايا المسيح وتذكير الناس بها، أما هذه البنية فقد أيقظت أحاسيسه وكسرت أمامه جليد صمت طويل، وقد تغيرت حاله وطال به الوقت وحيدا، ولولا ثغاء شاته لظن نفسه قد دخل القبر، وجد قناعة في نفسه أن لا يتخلى عن تلك البنية مهما حدث، وأغلق عليه كهفه وأزاح صخرة عظيمة نحو الباب لا يضعها الا حينما يحتدم القتال بين القبائل المجاورة ويخشى على نفسه اغارتهم عليه، ثم فتح فوهة الطوارئ في أعلى الكهف، وهي فوهة لا يفتحها الا لماما، يعلم أن النبي القادم سيجحده قومه وسيخرجونه وسيعذبون أتباعه فاستعد لذلك أتم الاستعداد، بنى غرفة مربعة صغيرة جدا، وفيها فوهة ضيقة يدخل منها نور خافت وهواء عليل يخترق أطنان الصخور التي تغلق الجبل، أزال ثوبه وعلق صليبه واستغرق في هدهدة البنية وارضاعها حتى نامت، فافترش لها جلدا محشوا بليف، ثم استلقى على فراشه لا يدري ما يفعل، ولا بأي صلاة يبدأ، فهرع الى محرابه وعكف على مناجاة ربه.

المحراب منحوت بشكل عشوائي في الطرف الآخر من الكهف، به فتحة تخرج منها الشاة وتعود، بينما يتدلى عنقود الرطب فوق رأس جرجيس ويملأ المكان ،لا يذكره الا بالمصابيح الزيتية التى كانت تزين كنيسته، جلس ذاكرا مبتهلا الى الرب كعادته، ثم قام الى البئر وجر الدلو بخفة لم يعهدها من قبل، فصب ماء وفيرا وفي قرارة نفسه أن يعمد الرضيعة تعميد النصارى، ويدعو الرب أن يسلم دمها من أولئك الوثنيين عبدة الأصنام الذين يتواجدون من حوله.

الى مكة

كان فاتك منشغلا في مجلس مكة باثبات مكانته وجاهه، يتمتع بنفوذه ووجاهته ،ويشارك سادة العرب وكبراءهم في القرارات الاجتماعية والسياسية للعام القابل، وكان بنو هاشم يتصدرون المكان لأنهم أسياد مكة وأشرافها، عرف جدهم هاشم بخدمته للحجاج اذ كان يهشم لهم الخبز ويتكلف بوفادتهم واكرامهم، أزيد من ثلاثمائة صنم يحيطون بالكعبة تصعد من جنباتها العطور الزكية التي يمنحها الأسياد تمجيدا واكراما، كانت عقيلاتهم تتنقلن وسط حشود من الخدم والعبيد، يشترين من سوق مكة ما اشتهته أنفسهن ويشهدن بعض طقوس القوم، لا يسمح لفناء الكعبة أن يكون مرتعا لضعفة الناس وصغارهم، الأسياد فقط يستقسمون بالأزلام ويتقربون الى الله بتلك الأصنام، يتبركون بها ويتمسحون، كانت الفارعة أم الأكابر ممن حظين بشرف تلك الرحلة، فصارت تتجول في أزقة مكة صباحا، ثم تعود الى اقامتها حيث نصبت لفاتك وذويه خيام كبيرة محاطة بمرابض الابل الجيدة والفرسان القوية يحرسها العبيد،تمشي خيلاء وهي تتأمل تلك الدور الموزعة على محيط الصحن المقدس، شعابها تؤدى الى الفناء المهيب حيث يسكن الأسياد مباشرة أمام الكعبة، بينما يسكن الآخرون في الأطراف النائية، تتخللهم دور البغايا اللواتي ينصبن رايات أمام البيوت علامة على تلك المهمة التي لم تكن تشهد الا على نوع شاذ من الوأد المتكرر لتلك الاناث، يتم دسهن في أتون المهانة والحقارة مدى الحياة، بينما تعرف بيوت أخرى الى جوارهن أنها بيوت المستبضعات، حيث يقبل على المرأة عدد من الرجال تختار بعد حملها ووضعها واحدا ليكون أبا لوليدها، وكثيرا ما كان الأسياد من المرغوب في نسبهم ومصاهرتهم، شعرت أم الأكابر بالفخر وهي تتأمل ما ترى حين تذكرت أنها تزوجت زواجا عاديا بفاتك سيد قومه، وأنه طلبها من والدها سيد قومها أيضا بنفسه، كانت تمشي وتترنح كبرا، وتضرب برجليها لتتحرك الخلاخل ويلتفت الناس ويعلمون ما تخفي من زينتها، فهي معجبة بساقيها الجميلتين، تطأ بخفها المرصع بكرات فضية صغيرة أزقة مكة المليئة بالحصى والرمل، يتقدمها من يعرف بها وبزوجها في النوادي والأسواق وينشد شعرا في مدحها والثناء عليها، انها تشعر أن أروع لحظات

يومها حين تقصد أسواق الأثواب والحلي القادمة من الهند والشام، أو حين تسمع ما ينشد في سوق عكاظ من الشعر في مدح الأسياد والغزل وعشق الناقة والليل والقمر والصحراء، انها تشعر بدماء العرب تسرى في عروقها وكيانها، ولا تملك الا أن تعود الى سيدات العشائر الأخريات وهي تتباهى بما حظيت به من الفخر.

لم يكن فاتك أقل زهوا منها، فهو ينتظر هذا الموسم طيلة السنة انتظارا، وبينما هو جالس بفناء الكعبة اذ جاءه خبر هروب فهيدة واختفائها، قام دون أن يظهر غضبه حتى لا يشمت به جلساؤه ،وهرع نحو اقامته وهو يلعن ويسخط ويتوعد فقال لصاحب الخبر:
-اجلس وأخبرني، ماذا وقع؟ كيف حدث ذلك؟... هيا... أفصح.

قال الرجل وهو يرتجف من الخوف:
-سيدي، هذا ما أخبروني به... و... قالوا...أ...أ... بأنهم بصدد البحث عنها ليل نهار، لقد أخبروا من طرف امرأة في الطريق تستضيف الحجاج أنها ماتت ودفنتها.
-ماتت؟.. ماتت؟... ما هذا الخبر يا سوء قومه؟... ليتني أعثر عليها الآن وأدفنها حية... وماذا عن ابني الذي في بطنها اللعين؟
-ابنك يا مولاي؟.. ابنك... لتباركك الآلهة التي شددت اليها الرحال، قالوا يا سيدي أنه لم يكن ذكرا.. فقد... وضعت... أنثى !... أنثى يا مولاي.

صرخ فاتك صرخة مدوية وضرب قدحا فاخرا كان أمامه حتى تناثر نحو الخارج وقال:
-ماذا تقول؟...سأجز عنقك الآن... أنثى؟...واللات لأضربن عنقك.. هه.. تحقق مما تقول، آلهتي لا تكذبني أبدا، والكاهنة؟... الكاهنة أخبرتني أنه ذكر! أتسمع يا نعي السوء؟.. أيها الوغد، يا نذير الشؤم، قلت لك لأضربن عنقك ولأضرمن النار في عينيك...هيا... ائتني بمن أتى معك الآن.

هرع الرجل وأحضر معه العجوز وناسة وهي ترجف وقالت:

-مولاي... أنا..أنا... كنت وفية لوالدك قبلك طول عمري...مولاي... ما يؤلمك يؤلمني...واللات والعزى... حياتي كلها مدينة لك.

-حياتك؟ أية حياة تملكين أيتها الحقيرة، كلك بضعة أيام فقط... أو أقل من ذلك ان لم تفصحي عما حدث بالضبط.. أفصحي.. ألا تعلمين أنني كنت أنتظر زف خبر المولود أمام أولئك الشامتين من زعماء القبائل من حولنا؟

-سيدي لقد.. لقد..غدرت بنا وولدت أنثى، واللات والعزى انها أنثى كأنك تراها بعينيك..كنت سأنوب عنك وأدسها في التراب حتى لا تلحقك المهانة، فنزعتها مني وأسقطتني أرضا وأطفأت السراج ثم هربت...مولاي... لقد سرحت مسروق قبل سفرك الميمون يا مولاي... واللات والعزى... جعلت ما في وسعي... علمت أنك حين ستبشر بها سيظل وجهك مسودا وأنت كظيم، فأقسمت أن لا أراك الا مرتاحا ومبتسما...انني.. انني يا مولاي أوفى العجائز لك في العشيرة كلها.

ضرب وجهها بعنقود عنب كان أمامه، فانتثرت حباته حاملة معها فؤاد العجوز المتعب الى سرداب الفزع المظلم، تسمرت في مكانها وهي تهمهم وتتلو تعاويذها السحرية، اقترب منها وضرب برجله على الأرض، ثم دفعها وهو يغرس سكين الفاكهة في وجنتها المتدلية وقال:

-هذا الوجه الهرم المتهدل نذير شؤم، تستحقين أن أعجل بك الى الموت، ولكن ماذا عن الآلهة؟.. أتكذبني؟.. والكاهنة؟..أما قالت الجنية أنني سأرزق ذكرا؟...ذكرا... ذكرا يقوم بشأن قبيلتي وزعامتي ووجاهتي من بعدي ويقوى بإخوته ويهابني كل الناس.

انحنت العجوز تقبل رجليه وهي ترتعش وعصاها مرمية على الأرض وهمهمت:
-مولاي صاحب النعم، هذه المرأة مصدر نحس في إقامتك المبجلة، وقد صرفتها الآلهة...أجل يا مولاي... لقد... لقد صرفتها الآلهة...

قاطعها مزمجرا:
-الآلهة... الآلهة.. كيف أكذب الآلهة وأصدقكم؟... لابد أن شيئا ما قد حدث من بعدي.

صاحت العجوز قائلة:
-مولاي.. لقد..لقد أغضبت الآلهة فغيروا جنس المولود المبارك، وعاقبوها بميلاد تلك الأنثى المشئومة، هذا ما رددته تلك الجنية بعد الوضع مباشرة و.. وطلبت منى أن أشكرك على استضافتك وأحمل اليك سلامها.. ها أنذي قد فعلت يا مولاي... تبين أن تلك الجنية سيدة قبيلتها هي أيضا...ولها في عالم الجن مالها من النفوذ... لقد أنزلت بها سخطها لأنها أهانت الآلهة واستهانت بقوتها...أجل...
-آه... فهمت... هكذا اذن... ما فتئنا نحزن آلهتنا، الآلهة حين تغضب تغير دائما رأيها، ولكن.. من؟.. من أغضبها؟..لم أغادر الا بعد أن قدمت كل الولاءات وهيأت العطايا، أخشى أن يكون بني رافع وراء هذه المؤامرة.

تشجع الرجل المرافق للعجوز حين رأى أن سيده بدأ يهدأ وقال:
-مولاي... لقد تعقبها خدمك الأوفياء بالليل والنهار، حتى عثروا على امرأة في خيمة وفادة ذكرت أنها أتتها مستجيرة بعد أن إفاقتها من إغماء ألم بها، لم تكن تعلم عن قصتها شيئا، وحين أخبرناها بأوصافها، قالت أنها ماتت من فترة قصيرة ودفنت في تلك الرمال الساخنة.

رد فاتك وقد هدأ مزاجه وجلس على مصطبة منصوبة تحت أقدام الهه المعظم قائلا:
-اللعنة، لتبتلعها الأرض هي وما ولدت، لو لم تفعل الأرض ذلك لشويتها بنفسي بالنار، تريد اللعينة أن تشمت بي العرب، سيسخرون مني... سيقولون أصبح فاتك أبترا ولم يعد يلد غير الإناث...وأنا أب لستة عشر فارسا... ستة عشر فارسا من أفضل القوم وأشجعهم في الفروسية والرمي والقتال؟ أكملهم أجساما وأعلاهم سؤددا... هه... لقد أحسنت الآلهة اذ غيرت رأيها، أحسنت واللات...و... وسأقدم لها اليوم قربانا عظيما شكرا وامتنانا واعترافا بجميلها أن دفنت هذا الخبر، اغربوا أنتم عن وجهي الآن، وأنت أيتها العجوز، اذهبي عند الفارعة أم الأكابر، وزفي لها خبر حسن صنيع الآلهة ولطفها بنا، يجب أن نكون جميعا ممتنين.
قامت العجوز مسرعة نحو إقامة السيدة وهي لا تصدق أن الأمور مرت بسلام ،و أن بطش فاتك قد هدأ، بينما أقبل هو على الإله يعكف عليه ساجدا وهو مسرور أن خبر عجزه عن الإتيان بالذكر السابع عشر بقي حبيس قومه.

كانت السيدة أم الأكابر ممدودة على فراش الوبر الناعم ،تحفها الوسائد الحريرية من كل مكان، والمزينة منشغلة بتفليج أسنانها الأمامية لتبدو أجمل نساء العرب في مجالس مكة، بينما انشغلت أخرى بوشم وردة شوكية على ذقنها، انها تحب أن تبدو في المساء من أبهى سيدات القبائل، فهي على موعد مع مجلس ستحضره المغنيات، وسيرقص فيه العبيد الأقوياء الرقصات الحربية الباهرة لإمتاع الأسياد، وسيقدم كل واحد منهم عبدا شجاعا مقداما قوي البنية يحسن المصارعة والمبارزة يفتخر به ويتيه، لم تنس أن تحمل معها مالا وفيرا حتى تعلم العرب أن من شيمتها الكرم وتمدح في كل ناد، بل إنها ستطلق أحد عبيدها حرا أمام الملأ، وستعلن ذلك في المجلس ليعلم أيضا مدى حلمها، فالحلم والكرم شيمة العرب، ولا يمكن إلا أن تكون هي من ذوات الشمائل العالية ،وفي الصفوف الأولى متقدمة السيدات الحرائر، وبينما هي منشغلة بترتيب قناني العطر النفاذ الذي اشترته من أسواق مكة لتلفت به الأنظار، إذ دخلت العجوز وهي تنشد شعرا في مدح السيدة والثناء عليها ووجهها يتهلل فرحا وسرورا فقالت لها السيدة:

-ما الذي وراءك؟ وما الذي أتى بك من حيث تركناك؟ أما أوصاك السيد بمقابلة تلك الأمة فهيدة؟

ضحكت العجوز عاليا وانحنت تقبل رأس السيدة وقالت في مكر:

-فهيدة؟...فهيدة؟.. فهيدة يا سيدتي حولتها الآلهة الى رمل ساخن!

قطبت أم الأكابر حاجبيها وقالت:

-انتبهي أيتها الشمطاء، فأنت تحدثين الفارعة أم الأسياد، أفصحي عن كلام مفهوم وإلا كان لي معك شأن،إنني أكره رؤية وجهك المنكمش، ولو كان خبرا طيبا فأفضل أن تزفه إلي أصغر جواريي وأحسنهن وجها.

-لا عليك يا مولاتي، الآلهة العظيمة انتقمت من فهيدة التعيسة وغيرت مولودها في آخر لحظة الى أنثى، ثم.. ثم رمت بها بعيدا في الصحراء لتدفن في الرمل الحارق... ههه.... انها الآن تحترق... تحترق يا مولاتي، وذاك جزاء من يعصي ولا يطيع.

دفعت أم الأسياد المزينة قليلا وقالت وهي تنظر في عيني العجوز:
-ماذا تقولين؟ الآلهة غيرت مولودها الى أنثى؟ يا للآلهة !...فهي... كانت تهم بمنافستي وبرز جمالها للجميع، يا للآلهة ! تقولين أنها وضعت أنثى؟

ضحكت العجوز عاليا حتى كادت تسقط على الأرض وقالت:
-أنثى... أنثى ثالثة يا مولاتي، يا للسخرية!
-وماذا حصل بعد ذلك؟
-هممت أن أدسها في التراب كما أمر مولاي...وأنوب عن مسروق، ولكنها... فرت...و... وتاهت ليلا في الصحراء، فأدركت يا مولاتي أن الآلهة قررت طردها من مكانك الطاهر.. ههههه..
-يا لك من عجوز ماكرة.. خذي هذه القطعة من المسك المخلوط بالعنبر وارحلي من هنا حالا، أخاف أن يصيبني شؤمك.
-لا تتطيري بي يا مولاتي، فإنما أتيتك بأسعد خبر.
-صدقت أيتها الشمطاء، اجلسي الى جنبي، فأنا بحاجة الى الكاهنة لتقرأ ما أنا مستقبلته في مجلس المساء ومعرفة اللون الذي علي اختياره في اللباس قبل الدخول عليهن، كما أنني...

ضحكت العجوز ضحكة عالية وهي تفرك أصابعها وقالت:
-كل ما تشائين يا مولاتي... مريني وأنا في خدمتك، سعدت بمجيئي الى مكة ورؤيتك بهذا الجمال.
-لا تقاطعيني ثكلتك أمك، هل عيناك تريان جيدا حتى تخبريني ان كنت الآن أبدو جميلة؟ ليست هذه مهمتك على كل حال ولكنني أحببت سماع رأيك.
-عيناي يا مولاتي تريان آثار أفاعي الصحراء ليلا قبل النهار، وأذناي تتحسسان فحيحها، و... ههه... عصاي فيها ما يفتح لي كنوز مجالس القوم، انظري يا مولاتي.
رفعت العجوز عصاها، فإذا هي محشوة بتمائم السحر، وبدأت تخرجها الواحدة تلو الأخرى وهي تقول: "هذه تميمة الهيبة حتى يهابني كل من مررت من أمامه... ههه... وهذه تميمة الشباب... حتى

لا أبدو إلا كما يبدو الشباب يا مولاتي، وهذه تميمة ترد عني عيون الحساد والحاقدين و.. هذه.".
صاحت السيدة:
-كفى... كفى.. يا لك من عجوز ثرثارة ومتشدقة ! تميمة ترد عنك عين الحساد؟ !.. يا ويح الحسد وما يفعل عندك... وعلى ماذا سيحسدك البلهاء؟

فهمت العجوز أن أوان نيل الحظوة عند السيدة قد حان فقالت:
-مولاتي، كل ما يتغنى به العرب من أوصاف المرأة الجميلة فيك، فأنت مولاتي الفارعة، الطويلة القامة المكتنزة اللحم وسط كل سيدات أقوام العرب.

قاطعتها السيدة قائلة:
-ويحك، وهل رأيتني معهن في مجالسنا؟أنت لم تحضري الى مكة إلا اليوم.

استدركت العجوز في لهجة الواثق:
-أخبرت عندما قدمت مكة، وكان أول سؤالي عنك يا مولاتي.. آه..قيل لي أنك الأجمل والأكرم والأحلم و... و..و.. أنك في كل مجلس لك صنيع ومعروف محمود.
-آه.. أو تحدثت مكة بهذا في نواديها؟
ردت العجوز في دهاء:
-وكيف لي أن أعلم عن مجالس مولاتي شيئا ان لم يكن الجميع يشير إليك بالبنان ويتحدث عنك ليل نهار؟

تهللت السيدة فرحا وقالت:
-وماذا أيضا؟ هيه.. ماذا قالوا؟ أفصحي!
-قالوا ان زوجة فاتك طويلة العنق وبعيدة مهوى القرط، وقالوا إنها فارعة الطول، وقالوا... ان...ان وجهها بدر يضئ القمر، وأن نقابها الحريري يغار من نورها، وقالوا... وقالوا ان مشيتها في مكة وهي تصلصل خلاخل فضية خلابة تعلم ماتخفي من زينتها

قبل أن تمر أمامهم، مشيتها كمشية الظباء التي تترنح أمام صياد رحيم، وقالوا أن عطرها حين تمر... يفوح فلا يدري اللبيب من الحيرة أين يقبل، وقالوا ان شعرة واحدة من شعر مولاتي الفارعة تصلح لتكون لجام خيل مكة بأسرها وأن.. وأن.. وأن سواد شعرها لا يضاهيه الا سواد عبد أبق لفحته أشعة الشمس الحارقة وعلق تحت أشعة شمس الصحراء الحارقة شهرا.

قاطعتها السيدة وهي تلاعب خصلات شعرها الداكن وتردد أبيات شعر قيلت في جمالها وسمنتها الأخاذة، بينما دخل فاتك وهو يشم رائحة العطور التي ملأت المكان وقد تهلل وجهه فرحا وقال:
-عمت مساء يا فارعة... يا أم الأسود، ألديك ما تأمرين به خدمنا قبل ذهابنا الى مجلس السمر؟
-مرهم أن يجمعوا ما قيل في جمالي وحلمي وفي كرمي.
قال مستنكرا:
-أما جمالك فلا شأن لهم به، أتحبين أن يقال: تغزلوا في زوجته؟
-كلا، كلا، هذه العجوز أطرت علي كثيرا.
-ويح هذه الكومة من الجلود المندثرة، إنها لا ترى محفر عصاها.

خرجت العجوز مسرعة وتبعتها المزينتان، بينما قامت الفارعة تستعد للذهاب اذ أقبل فاتك والإله في يده لتمسه بعطرها قبل مغادرتهما وهو يبشرها بموت فهيدة، ضحكت عاليا حتى بدت أسنانها المفلجة للتو تلمع أمام عيني فاتك وقالت:
-وماذا فعل بالوليدة؟

انتصب فاتك واقفا بسرعة وتذكر أنه لم يسأل عن الوليدة وربما تعقبه عارها فصرخ خارج الخيمة:
-الي بالعجوز المخادعة الآن !... أحضروها...أحضروها الى هنا.

وما هي الا لحظات حتى أتت العجوز وأطرافها تتحرك من الذعر فقالت:
-لبيك يا مولاي، لتحفظك الآلهة.

نظر إليها وقال في ريبة:
-قلت ان تلك اللعينة وضعت أنثى، وما أخبرتني أين هي؟
-لقد حملتها معها يا مولاي، وقالت المرأة التي آوتها أنها ماتت معها.

صاح قائلا:
-ماتت معها؟... من قتلها؟... أنا أولى بخنقها حتى يبرد ما في نفسي، من يجرؤ على فعل ذلك مكاني وأنا سيد قومه؟... من فعل ذلك؟

ازداد خوف العجوز وهي التي لم تكن تصدق قبل قليل أن الموضوع انتهى بسلام وأغلق الى الأبد فقالت:
-رئيس حرسك يا مولاي عنده الخبر.
-إلي به حالا.

قالت أم الأكابر:
-أهم ما حصل أن الآلهة الرحيمة خلصتك منهما معا.
-أجل، أجل، ولكن من وأدها مكاني وأنا أوصيت مسروق كاتم أسراري دون غيره؟

قالت العجوز والخوف يكسر الحروف في فمها:
-مسروق يا مولاي انصرف حين أرسلته... أنت يا مولاي من صرفه.

قالت أم الأسود:
-ها هو رئيس حرسك أمامك يا زوجي المهيب، ويا أشرف الأشراف.

صاح فاتك دون أن يهتم لزوجته التي تحاول أن تهدئ من روعه وهي تخضع بالقول وتلاعب ظفائرها وقال:
-تقدم أيها الملعون، من قتل الوليدة المشئومة ومن؟.. من دفنها؟
-مولاي، الخبر الذي عند المرأة أنهما توفيتا معا.

قاطعته العجوز وقالت:

-مولاي، ان جبروت الآلهة لحق بهما معا، لقد كانت تستهين بهم وتقول ان هذه الأحجار تكذب علينا وتخدعنا، و.... ونحن من صنعها وبجلها، وأنها آلهة تسخر منا دون أن تنطق بكلمة واحدة، لطالما سمعتها تردد ذلك، ولعل ما حصل لها هو أقل ما تستحق من العقاب.

رد فاتك مستفسرا:
-أو تسفه آلهتنا في عقر داري؟... لماذا لم تخبريني أيتها الحقيرة لأنتقم للآلهة العظيمة المبجلة...يا للعار...
-لقد قالت لي الكاهنة:" لا تخبري مولاي، فستتكلف الآلهة العظيمة بالانتقام له والدفاع عن نفسها، فهي تحبك كثيرا يا مولاي ولا تحب أن تثقل عليك بأمور اللئام والحقراء."

تدخلت أم الأسياد وقالت:
-مولاي فاتك،لست أدري لم هؤلاء العبيد والإماء لا يحبون آلهتنا ولا يعظمونها كما نفعل نحن... لست أدري لم ينكرون أفضالها.

تدخلت العجوز مقاطعة:
-تارة تصلي أمامها وتتوسل إليها، وتارة أخرى تسخر منها وتسفهها، لقد دفعت يوما اله مولاتي حتى سقط على الأرض، ثم جلست وأخذت تأمره بالعودة الى مكانه وهي تضحك ساخرة، من يومها علمت أن نهايتها لن تكون مبشرة.

قالت السيدة في حنق كبير:
-شلت يدها، الهي الذي تركته يحرس إقامتي يسقط على الأرض؟ ألم تصفعيها أيتها الحقيرة؟ ليتني أستطيع قطع يدها حتى بعد موتها، ليتني أستطيع فعل ذلك.

قالت العجوز:
-هذه اليد وما معها أصبحت رملا ساخنا يا مولاتي، حكمة الآلهة سبقت غضبنا.

قال فاتك منتهرا رئيس حراسه:
-ستحضر لي عظامها وتجعلها في تنور الدار عند عودتي، أو.. أو أحضرها الى هنا لأسجرها أمام الآلهة العظيمة ليشفى غليلها بعدما أهينت وأسقطت على الأرض.

قالت السيدة:
-هذا ما ستفعله يا مولاي حتى ترضي الآلهة، سنجعلها عبرة لمن بعدها.

رد فاتك وقد هدأت أعصابه:
-سيسمع بني رافع كيف يثأر فاتك لمن تجرأ عليه، حتى.. حتى بعد موته.

همست العجوز وهي تحك رأسها:
-سيعلم الجميع أن سبب غضبك عليها هو ولادتها لأنثى، أرى أن الأولى أن يكون ذلك بينك وبين الآلهة سرا.

رد فاتك منبهرا:
-يا لحكمتك أيتها العجوز!

اقتربت منها أم الأسياد ثم أمسكت بعصاها وقالت:
-معها ملوك الجن الأشاوس في هذه العصا، يخدمونها ويمدونها بالرأي والمكيدة... ويعينونها على قضاء مآربها أنى حلت وارتحلت.

ضحك فاتك وقال:
-ناولينيها لأرى، أرى أنها عصا قديمة.

فرحت العجوز بمشاركتها حوار السيد وزوجته وقالت:
-لولا أني أخشى أن تتأخرا عن لقاء السمر مع أعيان مكة... ههه... لحكيت لك قصتها يا مولاي.

ردت الفارعة المعجبة بنفسها وهي تتدلل:
-لا عليك، أنا أحب دائما اللحاق بمجالسنا متأخرة حتى ينظر الكل إلي ويتملوا بطلعتي ويتمنوا مقامي.

جلس فاتك القرفصاء، وتدلت على الأرض أطراف ثوبه الفاخر،ثم انهمك بفتح ما بداخل العصا من تمائم فقالت العجوز ضاحكة:
-أما سمعت بقصة سليمان الذي كان يحكم الجن العفاريت؟

ردت الفارعة غير مكترثة:
-سليمان؟ ومن يكون أيتها العجوز هذا الذي استطاع حكم الجن والعفاريت؟

-يقولون أنه مثل جدنا ابراهيم الذي بنى الكعبة، أخبرني يهودي من يثرب التقيت به مرة أنه كان يملك مفاتيح الحكم.

قالت الفارعة أم الأكابر باستغراب:
-مفاتيح الحكم؟ أيكون من هو أفضل من زعيم قبيلة راسخة وقوية في الحكم والسيادة؟ أعني.. هل هناك أفضل من زوجي شريف قومه، كيف يتحكم هذا الرجل في الجن وملوكهم؟

قال فاتك:
-يا لأسئلتك يا فارعة..تمهلي... انهم يعبدون الاله كما نعبده، فهم آباؤنا وأجدادنا ونحن على ما وجدناهم عليه، ولنا نصيب مما لهم، هيا لنذهب الآن من هنا، وسأحمل معي ما بداخل هذه العصا.

نظرت إليه العجوز دون أن تستطيع الاعتراض، بينما حمل عمامته ودس التمائم في ثناياها ثم توجه نحو فرسانه الذين ظلوا في الانتظار، أخذت العجوز وناسة عصاها الفارغة وقد خف ثقلها، ومضت وهي تضرب بها الأرض من شدة ما تكتم من الخيبة والغضب.

الأشهر الحرم

بدأ الراهب يتعود على خدمة الوليدة الوافدة عليه، لقد قرر أن يسميها مريم تيمنا بالعذراء، كما أنه بدأ يقوم بخدمتها ويغدق عليها من العطف والحنان الكثير، فجعل مواعيد لصلاته، ومواعيد لإرضاعها والقيام على شؤونها، وبدأ يتأقلم مع وضع الأب الذي حرم منه لسنوات طويلة، خصوصا حينما بدأت الصبية تشب وفتحت عينيها، أما حين تحرك يديها وتلاعبهما فذاك أوج سعادته وحبوره، سأل

نفسه مرارا لماذا يحرم الراهب نفسه من الزواج والأبناء، ولكن طقوس الرهبنة كانت تطوق بسرعة أسئلته وتحاصره حصارا، وهو لا يحب أن يبحر كثيرا في غير مسار الكنيسة، يعتقد أن الرهبانية تجعله متفرغا للرب وحده، وقد عمل لسنوات جاهدا على ترسيخ هذا الاعتقاد، وهاهو الآن قد انشغل عن نفسه وعبادته بهذه الوليدة التي مزقت سكون الكهف من حوله وملأته أصواتا وحركة، حتى الشاة الحلوب التي يدفع للراعي ثمن سوقها الى المرعى شعرت بالفرق وأصبحت تتطلع الى الطرف الآخر من الكهف كل حين، كثيرا ما كانت تقترب من البنية وكأنها تهنئها على نجاتها من الوأد والتحاقها بها في ركب الأحياء، وهو ما يشعر جرجيس أن تلك البنية دخلت عليه بقدر من الرب الذي باركها، وأصبح طعامه وشرابه مباركا يسعد عند تناوله، صورتها تحضر في كل سكناته، حتى تراتيله تحسن صوته وهو يتلوها، وبدا أداؤه شذيا عذبا حين يناجي الرب ويردد صلوات المسيح، كان اختياره لاسم مريم يفيض مشاعره، فيتذكر القديسة العذراء التى عبدت ربها في المحراب وكانت أنثى يرفضها بنو إسرائيل، ويصدون عن ارادة الرب الذي اختارها أن تلد ولادة معجزة وتكون أما للأتقياء والأصفياء، تمنى أن تكون الوليدة الأنثى التي بين يديه على أثرها في ذلك الكهف القاصي بين الجبال،قام من مكانه واحتضنها وسأل الرب لها النجاة وأن تكون مباركة في الدنيا والآخرة، وما زال يتضرع ويتأوه حتى سمع جلبة وأصواتا مرتفعة، أعاد الرضيعة الى مكانها وفتح كوة الكهف فاذا رجل ثائر الشعر يجري يمنة ويسرة ومعه نفر قليل من الناس وهو يصرخ عاليا:

-يا ويحكم !.. يا قوم.. ويحكم... إنها الأشهر الحرم.. ويحكم لا تقاتلوا فيها!

أطل الراهب على البنية في مخدعه يتفقدها ،ثم عاد وأخرج رأسه ليرقب ما يحدث، فإذا غبار كثيف أسفل الجبل يتطاير صاعدا كأنه الدخان، وابل كثيرة وخيل قافلة بسرعة كبيرة وهي تصهل من شدة

النقع، بينما تقدم العبيد والفرسان يكرون وهم يهاجمون كل من صادفهم، نزل الراهب قليلا نحو الراعي وقال:

-ماذا هناك يا عمرو؟

-فاتك يا سيدي الراهب، مر قبل ساعة نذير الحرب وهو يكرر قسمه أمام الآلهة.

-ماذا تعني يا عمرو؟ أي قسم هذا الذي تتحدث عنه؟...أي قسم هذا الذي يحدث هذا الرعب؟...

-أقسم فاتك أن لا يغمض له جفن حتى يقتلع القبيلة التي أجارت بني رافع، وقد أغار عليهم غيلة قبل وقت وجيز.

ذعر الراهب ورفع يديه نحو السماء وقال بصوت خافت:

-أيها الرب العظيم، اقهر فاتك الظالم... ما فتئ يشعل الحروب الواحدة تلو الأخرى، لقد أفنى من عبادك الكثير.

صعد جرجيس مسرعا حين سمع المغيرين يقتربون، ودحرج الصخرة الكبيرة، وأغلق عليه باب الكهف حتى لا يهجم عليه أحدهم، كان الصراخ والدعاء بالويل والثبور يملآن المكان، وما زال الناصح يصرخ بأعلى صوته معلنا: "يا ويح العرب ! يا ويحكم انها الأشهر الحرم ! لا تقتتلوا وعليكم بالحكمة والهدوء.. لاتفعلوا"....

كان الراهب يراه من بعيد يصيح وقد بح صوته،يخترق المكان جيئة وذهابا، بينما انطلقت الفلول المدججة بالسيوف والأذرع كالبرق الخاطف، واذا صراخ النساء وبكاء الصبيان يختلط بصهيل الخيل وتوعد المغيرين وتوسلات المعذبين، لقد عاد جنود فاتك، عادوا بعد سويعات قليلة من الاقتتال ومعهم عدد كبير من الأسرى ،فيهم المجروح الذي مازال جرحه ينزف دما، والمرأة الحامل يدحرجها الجنود دون رحمة، ومن تمضي متشبثة برضيعها وهي تجر قدميها الحافيتين في الرمل الساخن، كان الذين يحملون رؤوس بني رافع على الرماح يتقدمون الموكب الدامي، أما فاتك فكان يتوسطهم مزهوا ومحاطا بحراسه الأشاوس، خلفه الغنائم من رؤوس الأغنام والابل،بل كان من جنوده من يحمل القدور وفيها طبيخها الساخن

الذي تم غصبه للتو، وآخرون يمسكون بالأواني التي أفلتت من الكسر ويجر فساطيط الخيام ووبرها جرا.

اعترضه الناصح وهو رسول قبيلة أخرى وقال:
-سيدي فاتك، أنسيت أنها الأشهر الحرم؟...سينزل شر ما صنعت بالعرب قاطبة...

ترجل فاتك من على فرسه واقترب منه وقال:
-ستحرم عليك زوجتك ثكلتك أمك، ان آلهتي هي التي أذنت لي وأشارت علي، كف عن صراخك وإلا قطعت عنقك.

صعد الفرس ثم سار به نحوه وضربه بذباب سيفه على فمه ضربة كسرت أسنانه، فصرخ صرخة مدوية ردت عليها الجبال وعلا صداها، ثم عجله بضربة ثانية على رأسه حتى انفصل عن جسده وأكمل مسيرة النصر وقد وأد معارضة القبيلة المجاورة للقتال في الأشهر الحرم في مهدها.

الألم

كان جرجيس يتابع ما يجري من خلال ثقب بين الصخور، وهاله مارأى من الدماء، وتوجع ألما كيف يفعل أبناء آدم ذلك ببعضهم، كان يعتذر الى الرب مما فعله فاتك اعتذارا ،سيما حين علق رؤوس بني

رافع بشكل مهين على الرماح، ظل يتأمل متأسفا لحال تلك النسوة والأطفال كيف سيقضون ليلتهم في ديار ذلك الظالم، وكيف سيتواصلون مع بعضهم تحت ظلال سيوفه الفتاكة وما عساه فاعل بهم، كانت أقدامهم ملطخة بالغبار المشرب بالدماء كأنه خضاب وضعته مزينة عمياء على قدم عروس شلاء!

بعد مدة قصيرة هدأ المكان وسكن كل شئ، ولكن قلب جرجيس لم يهدأ ولم يسكن للحظة واحدة، لقد كان شديد النبض وممتلئا حنقا على الذي يجري من حوله، وآسفه أن يبتعد العرب عن دين ابراهيم الى ذلك الحد الذي كان شاهدا عليه، فقرر أن ينزل من كهفه لدعوة القبائل الى النصرانية، وتلقينهم تعاليم المسيح الذي يحب السلام، وتهييئهم لقدوم النبي الخاتم الذي اختار له الرب أن يظهر بينهم في جبال فاران ويشيع على يديه السلام والعدل، انه يعلم جيدا أن ذلك قد يجعله يدفع حياته ثمنا، ولكنه لم يعد يستطيع السكوت أمام ما يحدث من حوله، كما أنه لم يعد بمقدوره التحمل أكثر مما فعل، فقرر أن يبدأ بالحديث الى الراعي الطيب أولا، هذا الرجل الساذج الذي لم يكن يتحرك مع قطيعه الا وإلهه المصنوع من الحلوى في يده، لكم كان جرجيس يضحك منه حين لا يعود في المساء الى خيمته الا وقد التهم بعضه أو كله اذا كان جائعا، يضعه أحيانا على صخرة ليطوف به ويتوسل اليه، ثم ما يلبث أن يقضم أنفه فيتحول الى اله أجذع! ثم يقضم رجله فيصبح أعرجا، وهكذا حتى مساء يومه !! كانت تلك الشياه أعقل منه وهي تتناول عشب الصحراء القاسي دون أن تطوف به أو تتبرك، أحيانا تحضر له زوجته إلها من تمر أو خبز، وأحيانا أخرى من حلواء، سأله جرجيس ذات مرة لم أسرع في قضم الهه ساخرا ولم ينتظر حتى آخر اليوم فقال:
-عمرو أيها الراعي الطيب،لم عجلت بفناء الهك وأكلته سريعا، كان الأجدر بك أن تمهله حتى يجيبك آخر اليوم لما سألته في أوله.

ضحك الراعي وقال:
-اللعنة، أكنت ترقبني؟... ههه... لقد كنت جائعا!

-ههه... اترك له فرصة حتى يلبي لك طلباتك ويحسم في استشاراتك أيها الرجل الطيب.
-لقد أدخلته الى بطني وهناك سوف يحرسني ! فهو في معيتي على كل حال... هه...ههه.

ضحك جرجيس حتى كاد يسقط على قفاه وحمد الرب الذي يعبده وأثنى عليه وقال:
-أتظن أن هذا الإله الذي تصنعه بنفسك وتظل عليه عاكفا، و...ههه... أحيانا تأكله يستطيع أن ينفعك؟
-مه أيها الراهب، انني أعبد الاله في السماء مثلك.
-لا أظن، وما هذا الاله الصغير اذن؟ انه لا يتحرك ولا يسمع ولا يتكلم.
-انني أتقرب به الى الله زلفى.
-وهل طلب منك الرب أن تتقرب اليه باله آخر تصنعه بنفسك؟
-جرجيس يا عزيزي، لا تكثر علي الأسئلة، هذا ما وجدنا عليه آباءنا ونحن على آثارهم ماضون.

ما زال جرجيس يذكر كيف نظر اليه نظرة اشفاق ثم صعد الى كهفه، كانت الصبية قد استيقظت حين وجد نفسه يضحك من صنيع عمرو، ثنا على الرب أنها خلدت الى نوم عميق حجبها عن سماع أصوات المقتلة التي أحدثها والدها فاتك في سفح الجبال، لم تكن بعد على علم بما يفعله أبوها على بعد أمتار منها، كما أن فاتك أيضا لا يعلم أن نطفته يضمها ذلك الجبل القاسي الذي أصبح أرحم بها من أب ظالم عنيد كان سيفتك بها يوما ويدسها حية تحت التراب، كانت تلك الصحراء تحمل الكثير من الألغاز والرموز والأسرار، ثراها ملئ ببقايا الحروب والجماجم، كما أنه ملئ بحكايات الشهامة والنخوة والبطولة والوفاء بالوعد والحلم والكرم مما لم تعجز أشعارهم عن التغني به، انها تناقضات استطاع جرجيس فك ألغازها والاقتراب

منها رويدا رويدا لأجل فهمها دون الانخراط فيها، فصراخ النساء وولولة الصبيان التى سمع قبل وقت وجيز ما زالت تدوي في أذنه، لكم كان شوقه مشدودا الى هذا النبي الذي يفك إصرهم والأغلال التي عليهم ويمحو الرب به هذه المآسي والآلام.

عمد الى ركن في كهفه وبدأ يمحص ما بداخله من تساؤلات فقال في نفسه : "لم أنا هكذا متردد؟... هل سأتراجع عن قرار عقدته أمام الرب؟... لأنزلن الى هؤلاء المتقاتلين وأحدثهم بتفصيل عن البشارة، الرب سيباركني ان فعلت، ولكن كيف؟..كيف !.. ومتى؟ ثم.. ثم هل بمقدوري يا ترى فعل ذلك... هل أعود الى الراعي ثانية وأعاود الحديث معه؟... أيكون مجيبا هذه المرة؟...

استجمع أنفاسه وقرر أن ينزل اليه ويتعلم منه الكثير من المفردات العربية القحة التي يحب العرب استعمالها، فجرجيس يعلم أن لغتهم سامية وهو يتقنها كما يتقن العبرية والآرامية، وهم أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ولا يمكن مخاطبتها الا شفاهة، وكلما ازداد فصاحة الا وازدادوا له تقديرا.

في اليوم التالي أرضع جرجيس الصبية مبكرا، ووضعها حيث تنام، ثم قصد الراعي وجلس الى جانبه يتبادل معه أطراف الحديث، لم يخف الراعي عمرو تعجبه من جرجيس الذي قصده مؤانسا وهو الذي لم يكن ينفق عليه من وقته الا القليل، فلطالما أحب أن يزجي معه وقته ويتجاذبا معا أطراف الحديث الا أنه كان منزويا منقطعا الى العبادة والتأمل والانتظار طول الوقت، رأسه يكون متوجها الى السماء أكثر منه الى الأرض، كيف ينزل الآن؟ بل كيف يجلس الى الصخرة قرب الراعي وكتفه الى كتفه وهو يراقب شاته؟ لم تطل تساؤلات الراعي طويلا حتى بادره جرجيس قائلا:

-عزيزي عمرو، كم سنة وأنت ترعى هذه الشياه؟

-ثلاث عشر سنة يا جرجيس.

-وهل سئمت هذا العمل؟

-كلا.. كلا.. هذه الحيوانات تؤنس وحدتي، ليس في قبيلتي إلا حديث عن الحرب والثأر نهارا والسمر والخمر ليلا، ألفت الرعي ولم أعد آنس بالناس كثيرا.
-وهل لك أبناء؟

رد الراعي في حيرة:
-أبناء؟ أجل، ولكن لم تسأل؟
-لاشئ..لاشئ... أنت أب اذن...هه... شعور الأبوة شعور رائع، أليس كذلك؟
-أنا أرعى هذه الشياه لأصحابها على قراريط، وهو عمل شاق مقابل أجر زهيد، ولكنها تكفيني وعيالي الخمسة للضروريات فقط.
-لديك خمسة أبناء اذن.
-أجل، كانوا ستة.
-وأين اختفى السادس يا عمرو؟
-كان السادس صبية، وأنا فقير كما ذكرت لك، فقتلتها خشية الإملاق.
-قتلتها خشية الإملاق؟... يا للهول!...كيف طاوعتك نفسك وفعلت ذلك؟، كيف؟...
-لست نادما، انظر، إنني أتعب كما ترى وزوجتى هي الأخرى جوعى، هذه السنة كانت عجفاء والقحط لم يترك لنا زرعا ولا ضرعا.

أطرق الراهب رأسه قليلا وقال:
-ما رأيك لو أعطيتك من حين لآخر ما تحصل به على طعامك أنت وعيالك؟
-سأكون لك عبدا، سأخدمك ولن أكتفي برعي شاتك فقط.
رد جرجيس في برود:
-ليست لدي في هذه الدنيا طلبات كثيرة حتى تخدمني، لقد تركت حضارة باهرة في بلاد الروم، ينقصها هدوء هذه الصحراء وما ستحبل به من الحق عما قريب، جئت أنتظر نبي الزمان الذي لدي بشراه.
-كيف هي بلاد الروم؟

-أحدثك عن نبي سيأتي بأرضكم يحمل بشارة موسى وعيسى وتسألني عن أرض الروم؟ !...حسنا... سأجيبك في أوانه.
-هل عندكم حروب مثلنا؟... هل ربكم مثل ربنا؟... هل لديكم أغراس وجنان للرعي والاستراحة؟
-الحروب في كل مكان ياعمرو، هنا... وعند الروم... وفارس، لقد وصل عذاب البشرية ذروته، وهذه علامة قدوم نبي الزمان، سينهي الرب على يديه هذه المآسي، وستتحول الأرض الى جنان من الرحمة والعدل والمساواة، هذا ما بشرنا به.
-لست أفهم يا جرجيس لغتك، من هو عيسى؟ هل هو حاكمكم الذي يمدك بالمال؟
اقترب منه جرجيس وقال بصوت خافت:
-انظر يا عمرو الى هذا الكون من حولك، الى تلك السماء الصافية، بل الى تلك الشمس التي تأتي دائما في موعدها، والى القمر الذي يضئ طريقك ليلا دون أن تشعل نوره، وهذه الحيوانات من حولنا، شكلها، صوتها.. هذه الجبال الراسية الشاهقة، بل.. بل انظر الى نفسك، أين كنت؟ وكيف أتيت؟ أتراك سويت نفسك يا عمرو؟ أتراك فعلت ذلك؟

نظر إليه الراعي مندهشا وقال:
-كأنك ترى هذه الأشياء لأول مرة، أخشى أن يكون قد أصابك جن وادي عبقر، انه جن مرعب وأرى أن تعود الى كهفك وسأكفيك مشقة رعي شاتك.

غضب الراهب وحمل صليبه في يده وقال:
-جن.. جن.. عفاريت.. يا عمرو، لا شئ يحجبك عن الحقيقة، انظر أمامك بتأمل، لا تكن مع العميان.

انحنى وهو يكتم غضبه وحمل قبضة رمل في يده وقال:
-هل بإمكانك يا عمرو أن تعد ذراتها؟... أتعلم كم عددها في كفي؟...أتعلم؟...
-لا.. لا.. لا أستطيع ذلك طبعا.
-اذن، أصغ الي جيدا، فالرب الذي خلقها يعلم عددها، بل عدد ذرات كل هذه الكثبان الرملية من حولنا، أرجوك، اعقل يا عمرو.

أمسك بيده الخشنة وهو يجذبها ويؤكد:
-الرب يعلم عددها ياعمرو، الرب يعلم عددها ويعلم متى تولد أنت ومتى تموت ويرجعك إليه كما أتى بك أول مرة، يعلم عدد سعف النخيل وأوراق الشجر، انه يعلم كل شئ،.. نعم... كل شئ.
-من أخبرك بهذا؟... ثم.. ثم هذا الرب الذي يعلم عدد ذرات الرمل من هو؟...
-لقد اقتربت يا صديقي من الفهم، أخبرنا عيسى الذي أرسله الرب الينا.

قاطعه الراعي وهو فاغر فاه:
-كيف يرسله إليكم وهو يعلم كل شئ عنكم كما ذكرت؟
-أجل... أجل... أرسله ليقيم الحجة علينا، انه اله لا يحتاج الينا ولكننا محتاجون اليه، لقد رأيتك مرارا وأنت تقضم الهك وتطحنه بأسنانك في لحظة واحدة، أتظنه يستحق أن يعبد؟

حمل الراعي عصاه وجعل خطا على الأرض وقال:
-جرجيس يا صديقي، هذا فراق بيني وبينك، أخشى على نفسي من كلامك ولا أحب أن تسفه آلهتنا.
-أرجوك يا عمرو، اسمع، وعدتك أن أعطيك رزقا في يدك ولكن... أعطني عقلك، ناولني يدك، أشعر أنها يد لم تمسك من قبل سيفا أو رمحا، ولا تعرف الا عصا الرعي، إحساسي أنها يد مباركة،

وسيستأنس الكثيرون ببردها في حرارة الوثنية التي تتربع هنا وهناك.
-خذ، هذه يدي ممدودة نحوك، وأنا... أنا موافق.

ازداد طمع جرجيس في اقبال الراعي على كلامه وقال:
-ان قومك على باطل، وهم يعبدون أحجارا صنعوها بأيديهم، انها لا تملك لهم نفعا ولا ضرا، اذهب وفكر مليا فيما قلته لك.
-سأفعل، ولكن... هل ستناولني رزقا الآن؟
-أجل، سأعطيك مالا تطعم به أبناءك دهرا، فقط.. لا تتعجل.. لاتتعجل.
قام الراعي من مكانه مسرورا يتفقد رعيه الذي اقترب من حمى قبيلة أخرى، فجرى ليلحق به قبل أن تقوم حرب بين القبيلتين يكون هو سببها، ثم هوى بعصاه على رؤوس الشياه يضربها، بينما دلف جرجيس الى الكهف مسرورا لإصغاء الراعي.

الرؤيا

تفقد جرجيس الصبية التي ما زالت تغط في نومها، وأزاح حجرة عظيمة مثبتة على أرض الكهف ثم أخرج كيس دنانير ذهبية، حمل منها ثلاثة ودسها تحت ثوبه وأعاد كل شئ الى مكانه، ثم أخرج كتبه التي تضم وصايا موسى العشر وبشارة عيسى، أخذ يقرأها ويعيد القراءة حتى أغمض عينيه واستسلم لنوم عميق لم يفق منه الا عندما عادت الشاة حين أرسلها الراعي، انتبه فحمل قلمه وأخذ يدون رؤيا رآها عندما كان نائما في تلك اللحظة زادت من سروره وتشبثه بالبشارة، لقد رأى كأنه في أرض جرذاء مقفرة، وفجأة هطل مطر

غزير، ثم اخضرت تلك الأرض واعشوشبت، فلما نظر الى تلك المياه الصافية، رآها تنساب من أزقة مكة نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب في آن واحد، أيقن حينها أن رؤياه هي نور هذا النبي القادم الذي يشع في أرجاء الأرض، فقام من مكانه وأعاد الشاة الى الجهة الخلفية للكهف وخرج يتضرع الى الرب أن يظل جدعا حين تأتي البشارة فيكون من أتباعها، وينال شيئا من العناء الذي سيشمل المؤمنين بها، لقد ذهب من قبل الى أورشليم وحمل الصليب ومشى في طريق ملئ بالأشواك ليشعر بالألم كما شعر به عيسى وهو يواجه من يكذبه ويصد عنه، كان اليهود يسخرون من النصارى ولا يصدقون أن عيسى ابن امرأة عفيفة، وهاهم اليوم قد أتوا الى جزيرة العرب، وتعاطوا للتجارة والفلاحة حول جبال فاران وبالقرب منها ينتظرون بشارة موسى، إنهم يستفتحون على هؤلاء العرب الوثنيين ويحقرونهم ولا يرون أن لهم شأنا، بل إنهم يعملون على تتويج بعضهم على بعض ويصنعون الأحلاف، ويباركون خرز التيجان ويستنزفون أموالهم بالمعاملات الربوية، ويصنعون لهم السيوف والأذرع، ثم يتفرجون عليهم وهم يقتلون بعضهم البعض، لم يعد جرجيس قادرا على التأمل والتفكير في كل الذي يجري من حوله، أغلق كتبه وحمل الرضيعة التي استوت بنيتها وبرقت عيناها وأضحت تهش كلما نظرت اليه، رمقته بحنان فشعر أنها حملته بنظراتها الوديعة الى ذروة سعادته وحبوره، فقد غدا ينفق كل ما يملك من العطف والحنان والحب عليها، وما زال متيقنا أنها هدية الرب إليه، شئ واحد يؤرقه ويطرد النوم من عينيه ولا يترك له مجالا للحسم هو وجودها معه في كهفه الموحش، سيتساءل الجميع اذا علموا عن سبب مكوثها عنده، وعن أصلها وكيفية مجيئها اليه، سيتهمونه بالزنا وهو الذي سمع كل العرب عن عبادته وانقطاعه لمرضاة الرب، انهم يحقرون البغاء، وقد رفضوا من قبل إشراك أموال البغايا في ترميم الكعبة المقدسة بالرغم من انحرافاتهم المتعددة، سيضربون عنه صفحا ويعتبرونه مستخفا بالهه الذي يعبده ليل نهار ويدعي أنه يراقبه في كل صغيرة وكبيرة، من حسن حظه أن صراخ البنية يختلط بثغاء الشاة ،وأن باب الكهف بعيد قليلا عن

ممر قوافلهم، وحده الراعي عمرو هو من يقترب أحيانا بحكم سهره على رعي الشاة.

رحلة الصيد

كان فاتك منهمكا في تفقد قافلته التجارية التي جاءت للتو من الشام، فتذكر أنه وعد الآلهة بأوفر نصيب من هداياه، نادى على غلمانه وأمرهم بحمل ما استطاعوا من البضاعة الى جوار داره في مقر القرابين، الا أن رئيس حرسه جاء مسرعا والسرور يبدو على محياه وقال:

-سيدي فاتك، لقد عثرنا على عظام فهيدة بعد أن طمرتها الرمال، حدث ذلك بصعوبة بسبب مغادرة المرأة التى تأوي الحجاج المكان بعد انتهاء الموسم، ولكنني.. أنا... أنا من استطاع تحديد القبر بعد أن حفرنا ما حوله.

ربت على كتفه وقال:

-أنا فرح بقدوم قافلتي بسلام ونجاتها من قطاع الطرق، وفرح بقدومك بهذا الخبر، سأحرق عظامها وأذرها في الرياح العاتية وأجعلها عبرة لمن يعتبر، الي برميمها يا مرثد.

فتح الرجل كيسا من الجلد بسرعة وأخرج جمجمة وقال:

-فهيدة أمامك يا مولاي.

أخذ فاتك يتأمل الجمجمة ويطل من ثقوب العينين و قال:

-ضع هذا الرأس جانبا، سأجعله بخورا للآلهة وأنتقم لكرامتها.

ادخل الرجل يده في الكيس وأخرج عظما آخر وقال في حماس:

-وهذا عظم ساقها يا مولاي، لقد أصبح عظما لا حياة فيه وما أهلكه الا الدهر.

ضحك فاتك حتى ظهرت تمرة بداخل فمه كان يمضغها وقال:
-هههه..احمل هذا الكيس الى مولاتك أم الأكابر، ستعرف كيف تنتقم لالهها الذي أسقط على الأرض.

فرح الرجل لأنه طمع في الحصول على مكافأة كبيرة من تجارة القافلة، كان قد تعمد إخفاء الرفات حتى يأتي به سيده وهو في غاية النشوة أمام قافلته التي قطعت رحلة طويلة وأميالا بعيدة ووصلت في نهاية المطاف بسلام.

جاء الضعفاء والفقراء يتفرجون على تلك السلع البديعة التي حضرت للتو، أقمشة منوعة وعطور وزبيب وسبائك من الذهب والفضة للرجال والنساء، بينما لجأ صغار التجار الى التبادل والتعامل بالسلف والربا وهم يقتنون حاجياتهم، هذا يمهله سنة، وهذا شهرا، وذاك يهديه أمام الملأ،وآخر يطرده... انه السيد صاحب الأموال الذي يحيط به الأبناء الأشاوس والغلمان الكثر والخدم من كل مكان.

جاءت الفارعة أم الأسياد تجر أذيالها وقالت بفخر واعتزاز:
-يا مرحبا، يا مرحبا، أتيت لأنظر بنفسي الى سيدي وأبنائي وقد طعنوا حساد القبائل برمح في عيونهم.

أجاب فاتك ووجهه يتهلل فرحا وقد أرخى ظفيرته وراء عمامته وقال:
-هل وصلك رفات تلك اللعينة فهيدة؟
-بلى، سأفدي به آلهتنا وأثأر لها، ترى هل ستشعر بما سألحقه بها؟
-ثكلتك أمك يا فارعة، لقد أهلكها الدهر وغذت رميما لا حياة فيه، ولن تقوم أبدا، ولكننا سنعز آلهتنا ونرعب أعداءنا.
-وددت يا مولاي لو شعرت بي وأنا أعذبها وأكسر اليد التي تسقط الهي في مخدعي.

-حسنا عودي أنت الآن وأعدي لي مجلس شراب، سأستدعي قومي لسمر الليلة، ولتعقر خمسة من النوق وتوقد النار وتوضع فوقها قدور الضيافة.
-أمرك مطاع يا سيدي، لتحرسك الآلهة.

استعرضت الفارعة القافلة من أولها الى آخرها ،ثم انصرفت وهي تشعر بالكبرياء والفخر، يكاد غرورها يطير بها في السماء، بينما كانت النساء تطل على موكبها من شقوق الأبواب المتهالكة، فيما تتبع الصبيان الكوكبة المهيبة.

وفي مساء ذلك اليوم ،كان فاتك يتوسط المجلس ورائحة الشواء والمرق تملآن المكان، كانت الجواري الصغيرات تمرر كؤوس الخمر على الندماء والقينات تعزف والعبيد يدقون الطبول، انها ليلة سمر يحبها فاتك ويقدمها للآلهة التي رصت بعناية في مكان عال وقريب من السقف، فرعايتها للمجلس تتطلب وضعها في مكان محترم ترى منه كل شئ، بينما بقيت مكانة كبير الآلهة فارغة لأنه حمله معه الى محيط الكعبة أثناء أداء الطقوس في موسم الحج.

كان الكل مترنحا يفاخر بأشعار الغزل والشهامة والحرب والوجاهة... وقد تمدد بعضهم الى جوار بعض يعاقرون الخمر ويتنذرون، تحفهم الأفرشة الوثيرة من كل مكان ،تقدم فاتك وهو يترنح ووقف وسطهم، وفتح علبة عطر سائل، وأخذ يمطرهم به تباعا وهم ينزعون عمائمهم التي تدلت، وكشفت عن رؤوس تحمل الكثير من القرارات المعقودة في تلك الأجواء المخمورة، وحين اقترب الصبح وشرف السمر على الانتهاء، طلب منهم فاتك أن يصحبوه في اليوم التالي الى رحلة صيد الظباء لكونها هوايته المفضلة، ولا يذهب للصيد عادة الا اذا جاءته قافلة مهيبة رفعت من ماله وتجارته، تكتمل فرحته عندما يعود من رحلة صيد تعلق فيها الظباء على فرسه، وافقوه وتواعدوا على اللقاء قرب بئر شهيرة خارج القبيلة.

في الغد حضر جمع غفير من جلسائه ومعهم غلمانه الذين يحملون الرماح والنبال، فنزلوا فجاج الجبال الصخرية ينشدون صيدا ثمينا،

ويتحسسون الكهوف التي غالبا ما يأوي اليها الكثير من حيوانات الصحراء وهوامها.

كان الجو حارا جدا، ومر وقت طويل دون أن يصيد فاتك ظبيا واحدا، شعر أن غروره وكبرياءه يلحان عليه في الحصول على صيد وبأية وسيلة، التفت يمنة ويسرة، فوجد عبدا أسود يمسك بخطام فرسه فتطير من وجوده أمامه، اقترب منه قليلا، ثم نزع الرمح من أحد غلمانه، ولكزه به حتى أدمى بطنه، سقط الرجل يتوجع من الألم، بينما مضى فاتك وقد هوى فرسه بحافره على ساقه غير مكترث.

غادر فاتك المكان وهو يلعن العبيد ويشتمهم، ويتوعدهم ويتطير من وجودهم أمامه، أما الرجل فقد تمدد جريحا على صخرة ساخنة فاضت عليها دماؤه المتدفقة ولم يستطع المسير، وظل الدم يسيل من بطنه حتى أسعفه أحد العبيد الذين يتأخرون وراء الموكب لئلا يلحق به أذى، ساعده حتى اتكأ على ظهره وقال:

-ما خطبك يا سالم؟ لقد رأيتك تمسك بخطام فرس مولاي وأنت في عافية.

-أدركني... فاتك... فاتك أدمى بطني... أبنائي في ذمتك يا أبا سعد...أراني تاركهم... لقد اشتراني منه مولاي النضر وانتظرت طويلا أن يتسلمني لكنه تأخر... آه...

-دعك من الوصايا الآن... ولا تخش شيئا يا سالم... هذه الضربة تمكنك من المسير نحو الموكب، لا تمكث هنا وحيدا... هيا... أمسك بيدي وسأساعدك على القيام.

-كلا... اذهب يا أبا سعد...اذهب الآن... وسألحق بكم، ربما رآك أحدهم وأنت تسعفني.

-سأتركك... استرحم مولاي فاتك حتى لا يتركك هنا.. استرحمه يا سالم... أسمعت؟... استرحمه...

غادر موكب فاتك المكان وهو يخترق هجير الصحراء الساخن اختراقا، لا يسمع الا حوار السادة فيما بينهم ،وأوامرهم التي تصدر الى العبيد حين يتراءى لأحدهم خيال صيد ثمين يرجو الحصول

عليه، وإهداؤه لفاتك الذي يبدو أن مسيرة الصباح أرهقته، فقد تبللت لحيته من العرق وثقلت عليه قدماه من التعب، فاختار أن يستريح ويقضي قيلولته في سفح أحد الجبال، أصدر أوامره بالتوقف للراحة، وبسرعة البرق، فرش العبيد المكان، وصبوا فيه الماء البارد حتى تصعد رطوبة الأرض وتنعش فراش السيد الذي استسلم لنوم عميق في عبق جو الفجاج الندي، قام العبد سالم يتحسس الجرح ويتقفى أثر الركب، وأمسك بطرف ثوبه ثم ضغط به على جرحه وهو حافي القدمين، استطاع بصعوبة أن يصل الى حيث يقيلون، تقدم ببطئ وهو يتألم من وقع كل خطوة على الأرض الصخرية الساكنة ،كان بطنه يتمزق بعد كل حركة، ولكنه ظل يتحامل على نفسه حتى وقف أمام المنزل المفضل لدى فاتك ،أخذ ينظر الى جميع من في المكان وقد اختار كل واحد منهم طرفا ظليلا يحتمي به من حرارة الشمس، حتى أن شخير بعضهم سمع عاليا، اقترب قليلا، ثم تسمر في مكانه، ثم عاود الاقتراب ثانية، كاد بعض الحراس أن يضبط حركته إلا أنه ظل مختفيا يضع قدما ثم يؤخر أخرى، الى أن استطاع الاقتراب من سيف فاتك الممدود الى جانبه، فحمله بحذر شديد،كانت قطرات دمه ترسم على الأرض التي أمطرت بالماء لوحة حائرة تعكس تردده وفزعه، لا يسعه أن يمحو أثره ولا هو قادر على ذلك.

أمسك بالسيف بحذر شديد ،واستجمع كل قوته فرفعه عاليا ثم هوى به على بطن فاتك وفلقه نصفين، فخرجت من فيه صيحة رهيبة دوت بين الجبال ! علا صداها ومزقت سكون هجير الصحراء شر ممزق !... بينما سقط سالم الجريح على جثته يثبت الضربة تلو الأخرى دون توقف ،حتى ارتوى بطنه وصدره من دماء من عذبه وغصب حريته منذ كان طفلا صغيرا دون أدنى رحمة ولا شفقة.

هب كل من كان في المكان مذعورا، وأسرع أبناؤه حين رأوا أباهم صريعا وقد خرجت أمعاؤه وتدلت على الفراش الحريري الناعم، فعلا صراخهم وذويهم، أزاحوا جثة العبد عن والدهم الصريع ،وضربوه بسيوفهم ضربة واحدة لم تبق منه الا قطعا متناثرة، بينما حشر كل العبيد في صف واحد، وجاء صغار أبنائه يضربونهم بغمد السيف على وجوههم ويلعنوهم لعنة.

كانت تلك الصرخة المدوية التي أحدثها فاتك قد أججت صدى قويا بين الجبال، فوضع جرجيس الرضيعة وهرع خارج الكهف يستطلع ما يجري غير بعيد عنه، بينما أطلقت الصبية صراخا عاليا وكأنها تعلم بموت والدها بتلك الطريقة الموجعة، عاد وحملها، وأخذ يهدهدها حتى سكنت، بينما لم يسكن الموكب المفجوع وهو يخترق الفجاج، لقد دوى صراخ الرجال وعويلهم واهتز له المكان اهتزازا، حملت بقايا كبد العبد لتلوكها وتمجها الزوجات والقريبات ثأرا ثم تشعل فيها النيران، وصار الموكب الحزين يتقدمه الأبناء والندماء وقد كشف بعضهم عن سوأته تعبيرا عن الألم والسخط، كان الخبر قد سبق الى القبيلة فخرجت النساء تتقدمهن الكاهنة وقد شققن الجيوب ولطمن الخدود، تسمر العبيد والإماء في الصفوف الخلفية تبكي عيونهم لبكاء الأسياد وهم يضعون أيديهم على قلوبهم، شعروا أنهم مصدر هذه الصدمة ،فتملكهم الخوف والفزع وانضاف ذعرهم الى ما هم فيه من الضيق، لقد أصبحوا أكثر مهانة من ذي قبل.

كانت أم الأسياد تمزق شعرها الكثيف وهي تسمع أشعار النياحة والرثاء والحزن، كما أمرت بإطفاء السروج والنيران وابقاء كل العبيد بلا طعام ولا شراب ثلاثة أيام كاملة، بينما حمل الابن البكر زمام والده ودفنه تحت التراب وورث متاعه ونساءه من بعده.

الراعي

بدأت مريم تكبر ويشتد عودها في ذلك الكهف المقفر، بينما استطاع جرجيس أن يقنع الراعي بعبادة الرب الخالق وحمل زوجته وأبناءه على عقيدته، كان يكرر دائما أنه لم يكن على قناعة تامة بعبادة اله هو صنعه بنفسه،وأن سماء ذات أبراج وأرضا ذات فجاج تحدثه عن وجود العليم القدير، ولكنه كان يشعر أنه جزء من محيطه الذي يعيش فيه، ولا يحب أن يشغل نفسه بأكثر من رعي تلك المخلوقات الصامتة، ولا شأن له برعي أفكاره في مروج الحياة، إلا أنه قرر أخيرا أن يفعل، اذ لم يترك جرجيس ممرا الى عقله وقلبه الا وسلكه، مستعينا بالإكرام وخفض الجناح حتى أصبحت بينهما علاقة أخوية قوية، فصار يشاركه الانتظار ويتشوق الى قدوم نبي الزمان الذي يحمله الى فيض السعادة، كثيرا ما نزل الى مكة وطاف القرى من

حولها يستطلع الأخبار، فتشمئز نفسه من رؤية تلك الأصنام في كل مكان، لقد اقتنع تماما بالنصرانية كدين عادل ،خصوصا حين اكتشف أن ما كان يسأله تلك الأحجار لم يتحقق إلا عندما سأل خالق الكون وموجده،ورأى جرجيس وهو يرفع بصره نحو السماء ويسأل الرب أن يريح الخلائق من شر فاتك الظالم، فاستجاب له الرب لما سأل، كان دعاؤه هو أول ما أشعره بعجز تلك الأحجار، وقد تحسن حاله وأصبح يرعى شياها وأغناما يملكها، بينما أصبحت زوجته وصيفة إحدى شريفات قبيلته، ودخلت عليه دنانير صديقه جرجيس بالبركة، وأصبح يقضي وقتا طويلا في الحديث الى ربه ومناجاته، بعدما كان يجزي وقت الرعي في التغني ببطولات الحروب الفتاكة وأشعار التغزل بالراحلة والليل والصحراء...وما يتداوله أقوام العرب من الحداء والشعر الصالح والطالح ،حيث تستوي الدعوة الى الأخلاق النبيلة بالتحريض على الحروب والاقتتال، لا فرق بينهما و لا يهتم عمرو إلا بالشكل الفني الذي ينغم حباله الصوتية ويطرد عنه رتابة الرعي وسط غابة من الأثل والسدر القليل.

تغير أسلوب عمرو الراعي في الحياة كثيرا، وأصبح يتعمق في الأسئلة الفلسفية التي يحفزها جرجيس في ذهنه، وصار رحيما مسالما الى الحد الذي يتحسس خطواته في الطريق بدقة حتى لا يقتل نملة تحمل روحا سواها الخالق، كل ما حوله أصبح منه في مأمن، يؤمن أن الرب يحيي العظام وهي رميم، وأنه قادر على أن ينشئها كما بدأها أول مرة، وأن هناك بعثا وجزاء وراء هذه الحياة، وأن هذه الحياة للاستعداد بسعادة نحو السعادة الأبدية ،شعر بفيض كبير من الراحة النفسية بداخله ،وبسعادة لا حد لها تشمله ،حتى انه كان يحدث نعاجه وهو يشعر أن الرب أمرها بالخضوع له، وقد زاد من قدره أن علمه جرجيس القراءة والكتابة وناوله نسخة من الإنجيل وبعض الوصايا والتراتيل والصلوات، كان يطلع على وصايا موسى العشر التى تحرم القتل والسرقة والزنا... وتأمر باكرام اليتيم...وبشارة عيسى الذي كان يحيي الموتى بإذن ربه، ويأمر باشاعة المحبة والوئام واجتناب المعاصي، لقد غدا بالنسبة له ما تقوم به القبائل من

الفتك والعنصرية مضادا لارادة الرب الذي خلق الناس كلهم من نفس واحدة، وأمرهم بشئ واحد هو عبادته دون غيره من مخلوقاته.

سعد جرجيس بإقبال عمرو الراعي على دينه ،وقرر أن يضع كسوته السوداء في صندوق ملابسه ،ويعلق صليبه على جدار الكهف، ويلبس لباس العرب الذين يعيش بينهم، وينزل من برجه لتعليمهم دين النصارى ونبذ عبادة الأصنام، فرأى أن يبني هو وصديقه الراعي دارا في سفح الجبل لإيواء المسافرين، دار ضيافة بها جناح يستقبل من يصلي للرب خالق الكون دون أن يثير الوثنيين من العرب، وكذلك كان، اذ قام جرجيس ولم يقعد حتى بنى دارا طينية بسيطة وأنيقة ،كتب عليها بالعربية بعض أقوال المسيح التي تدعو الى المحبة والتآخي، وكانت زوجة عمرو مكلفة بالسقاية والإطعام، بينما كان أبناؤه يسهرون على حراسة المكان وترتيبه.

وصل الخبر الى مجلس الأساقفة في الروم ،فقرروا أن يمدوا جرجيس بالمزيد من الدنانير الذهبية والدعم المعنوي، لم تكن مهمته باليسيرة، فقليل جدا من الوافدين يستجيبون له وسط كتمان شديد، كما أن أكثرهم لا يعودون إليه الا بعدما تنمحي أقواله من أذهانهم، الكثير منهم يسخر ويرفض عبادة اله لا يراه ولا يلمسه.

جاءه أحدهم يوما بعد أن هم بالرحيل الى مكة وقد أكرم جرجيس وفادته وقال:
-تزعم أيها الراهب أنك تعبد إلها هو خالق السماوات والأرض!

رد جرجيس في ثبات:
-أجل، هو من خلقني وخلقك.
-نريد أن نراه جهرة اذا كنت صادقا.

ضحك هو ومن معه وهم يرتبون أمتعتهم وقالوا بصوت واحد:
-أجل، دعنا نره حتى نصدقك، هل أخفيته في ذلك الكهف المقفر؟

قال آخر ساخرا:

-لا تلمنا أيها الراهب الطيب، نريد فقط أن نراه لنودعه قبل رحيلنا من دار ضيافتك، ههه.. هه.

غضب جرجيس غضبا شديدا وقال:
-ويحكم، أنتم أقرب الناس اليه ولكنكم لا تنظرون، أنتم ألصق الناس بهذه الطبيعة الواضحة، انظروا: "من يمسك هذا الجبل الشاهق؟... انظروا الى السماء الصافية فوقكم والأرض المنبسطة من تحتكم... انظروا الى كل هذا الذي بين أيديكم...انظروا...من يمسكه؟...من يدبر أمره؟...لا تكونوا كالعميان... أتظنون أن أحجارا صنعتموها بأيديكم هي من يسهر على تدبير الموجودات؟...أتؤمنون بذلك حقا؟"....

قال أحدهم:
-لتخرسك الآلهة، إذا كنت تتحدث عن الله، فهذه الآلهة التي تسفه هي من تقربنا إليه زلفى، ولولا أنك أكرمتنا لكان لنا معك شأن.

استدرك جرجيس أنه تجاوز الفاصل بينه وبين الوثنيين فقال مستعطفا:
-مرحبا بكم إذا عدتم ثانية، ارحلوا الآن... ولكن.. ولكن فكروا فيما قلته لكم.

كان جرجيس يقضي نهاره في الدعوة الى نبذ عبادة الأصنام بحذر شديد، ومن غير أن يثير عداوة أحد، بينما كان في نفس الوقت يسهر على تربية مريم التي شبت وكبرت ولم يعد بامكانه اخفاؤها، خصوصا وأنها أصبحت لا تصبر، وتتوق الى رؤية ما بخارج الكهف، وضاق عليها المكان، وتخيلت نفسها في سجن حجري ضيق، كلما رأته يهم بالخروج الا وبكت وأحبت مرافقته، لم تفهم لماذا تطير الطيور في السماء وترعى الشياه في مراعي الصحراء، ويخرج جرجيس ويدخل متى شاء وهي ممنوعة من الجري والحركة، كان يحاول في كل مرة ثنيها عن الذهاب الى الخارج وإقناعها بالاكتفاء بالنظر من خلال الثقوب، ولكنها لا تقتنع، فتلجأ الى البكاء بمرارة ولا يتوقف الحاحها، أدرك جرجيس أن الطفلة تتعذب عذابا لا تطيقه،وأنها بحاجة الى اللعب والحركة في محيط واسع كغيرها من الأطفال، فازداد عذابه واتسعت رقعة غمه، وهو الذي لا يحب أن يمنع نملة من المسير الى جحرها، فضمها الى صدره والبكاء يغالبه وقال:

-مريم يا بنيتي، إنني أحب الرب وأخاف على هديته لي.

-وما هي هديته إليك يا أبي؟ ولماذا الخوف؟

صمت قليلا وهو ينظر الى الأرض والأسى يمزق قلبه، فانحت تنظر الى عينيه وقالت مستفسرة:

-دعني أسمع جوابك يا أبي، لماذا لا ترد؟

انهمرت دموعه حتى غالبته وهو يحاول إخفاءها وقال:

-أخاف عليك من اللصوص الذين سيبيعونك بثمن بخس في سوق الجواري، أخاف عليك ممن يكرهون الإناث ويرون أنهن يجلبن لهم العار ولا يستحققن اقتسام الحياة معهم على هذه الأرض،

أخاف عليك يا بنيتي كما يخاف الراعي على غنمه، أتعلمين ما أقول يا مريم؟... يا قرة عيني وأنيس وحدتي؟

مسحت بيدها الصغيرة دمعة ساخنة على وجنته ودفنت أصابعها في لحيته الكثة وقالت بصوت حزين:
-دعني أخرج يا أبي، أحب مرافقتك، أرجوك لا تتركني هنا لوحدي ثانية، يجب أن تقول لي لماذا أنا هنا دائما لوحدي؟...ما شأني بالبيع في الأسواق والغنم في المراعي؟... لماذا لا أخرج؟... لماذا؟... لماذا؟

لم تنه تساؤلاتها حتى أشارت بأصبعها الصغيرة الى نملة على الجدار وقالت:
-تمنيت يا أبي لو كنت تلك النملة الصغيرة التي تخرج من الكهف وتدخل بحرية، ارفع رأسك وانظر إليها، بعد قليل لن تراها هنا يا أبي... صدقني يا أبي، لن تراها... ستخرج بحرية ثم تعود الى الكهف آمنة...إنني أتتبعها بعيني كل يوم حتى تغادر....لماذا لا أكون أنا مثلها؟...لماذا؟...
-قد تصادفها يا بنيتي قدم قاتلة لا تأبه لما تدوسه تحتها، فتكسرها كسرا، أو تضغطها حية تحت الرمل الساخن.
-أرجوك يا أبي... أحب أن أخرج معك... أجل أحب ذلك، هل ستتركني مرة أخرى لوحدي؟

كان ينظر إليها وكلماتها تنزل عليه كالسياط، فابتسم ابتسامة تخفي حزنا عميقا بداخله وقال بصوت خافت:
-حسنا يا بنيتي، خذي كتابك الآن وأعيديه الى مكانه، وسأحكي لك قصة عيسى والحواريين حتى تستسلمي للنوم، وبعد استيقاظك سأتدبر الأمر.

هتفت البنية وهي تتمايل فرحا:
-أشكرك يا أبي، ما أطيبك ! أشكرك...

ضحك جرجيس ضحكة حانية وهو يسأل نفسه عن الكيفية التي سيحل بها المشكلة، كيف يمكنه أن ينقل الخبر الى القليل من أتباعه الجدد وهم يرونه قديسا ،ولم يسمعوا من قبل بأن في كهفه بنتا صغيرة؟ لقد عودها أن تدخل الى الجزء الخلفي من الكهف كلما سمعت صوتا أو حركة، وكان يبالغ في تحذيرها لحد أن بث الرعب والفزع في قلبها الصغير أصبح مهمته التي يتقنها، كان يفعل ذلك مكرها والأسى يطحن قلبه، وها هي الآن لم تعد تريد أن تكمن وتتبع تعاليم التستر والاختفاء عن الأنظار، لقد بدأت تشب وتعشق الحرية، كثيرا ما كانت تلهو بنوى التمر والأحجار الصغيرة على أنهن صويحباتها، وتضع كل نواة أو حجرة في مكان من الكهف ،ثم تبدأ بالحديث عن أي شئ تتخيله.

حضرت هذه الصورة في ذهن جرجيس وعلم أن الوحدة تفتك بمريم، فاسترسل ذهنه شاردا حائرا ومريم نائمة بين يديه، نظر الى وداعتها وهو يشكر الرب ويسأله أن يعينه على القيام بشؤونها، بينما تمددت هي في حضنه واستسلمت لنوم عميق .

قام فوضعها حيث تنام، وأخذ يتأمل اللوح الذي كتبت بالعبرية والعربية فاندهش لذكائها الوقاد، كيف تتعلم بتلك السرعة المدهشة، بل كيف تحسن كتابة الخط وتنميقه، وكيف أصبحت تردد معه التراتيل أثناء الصلاة بالاعتماد على حفظها ! سأل الرب بتضرع أن يعينه على إسعادها، ثم جمع الألواح الحجرية وسعف النخيل الذي تكتب عليه، ووضع بعضها فوق بعض، ثم رص نسخة الإنجيل في كوة في أعلى الكهف، فهو يعتني بها كثيرا ويهم أن يعرضها على نبي الزمان إذا بعث.

جلس يفكر كيف سيتدبر أمر خروج مريم من الكهف، لقد وعدها بأن تخرج الى العالم وترى الناس وتتحدث اليهم، شعر أن عليه الوفاء بوعده، فعمد الى زناره وتلفع به، ثم غرق في مناجاة الرب وسؤاله أن يلهمه صواب الرأي فقرر فجأة أن يجمع كل أصدقائه ويصارحهم، فهم لا يتعدون العشرة، ولن تصعب محاورتهم والخوض معهم في هذا السر المدفون لسنوات في كهفه ،قال في نفسه

:" أتوقع أنهم سيسمعون مني ويصدقوني... سأقول لهم الحقيقة كاملة... لا أزيد عليها ولا أنقص... و ماذا لو لم يصدقوني؟... ماذا لو قتلوني؟... مالذي ستواجهه مريم من بعدي؟... رباه أغثني وأخرجني من هذا الضيق... أغثني."...

شعر لأول مرة بشئ مما اعترى عيسى حين كذبه بنو إسرائيل ،وما قرأ عن الأنبياء الذين جفاهم أقوامهم وكذبوهم وهم من الصادقين ،لقد ذاق شيئا من مشقة مهمتهم، وأدرك أن أصعب شئ هو حين تصدق الناس وهم مكذبوك، وجد نفسه يردد : " يا للمشقة !... يا للمشقة !...سأكلمهم في الأمر... رب اجعلهم يصدقوني...يا للمشقة".

في صباح اليوم التالي خرج مبكرا، واستدعى ستة من أتباعه الى مكان قرب البئر، وأحضر الإنجيل في يده، كان يحمله بحذر لأنه عبارة عن ورق قديم أحضره معه من أرض الروم وهو ملفوف بعناية فائقة، فيه كلمات الرب التي لا تفارقه ويعتز بشهادتها عليه وقال:

-اخواني الأعزاء... الرب يبارككم... إذا... إذا قلت لكم أمرا، أكنتم مصدقي؟

نظروا اليه جميعا وقالوا:

-نحن نرى أنك لا تكذب علينا أبدا ،وتعلم أننا تركنا دين آباءنا وأجدادنا لما رأيناه فيك من حسن الخلق وحب الخير.

قال بنبرة متفائلة:

-سأضع يدي على هذا الإنجيل وأدعو الرب أن أمحق إذا كذبتكم، إنني...إنني.... إنني سأحدثكم عن أمر هام.

قال أحدكم:

-وما هو؟.. قل لنا... لقد جعلتنا في حيرة من أمرنا وشوقتنا كثيرا الى ما ستقوله.

-حسنا، لو أن أحدكم كان في بيته...و...خرج في الصباح... فعثر على حمل صغير أمام باب بيته ،وهو يخاف عليه أن يلتهمه الذئب، أيأخذه أم يتركه؟

هتفوا جميعا:
-يأخذه... يأخذه ولا يتركه.

قال جرجيس بسرعة:
-وماذا يفعل بعد ذلك؟

هتفوا جميعا:
-يبحث عن صاحبه حتى لا تضيع الأمانة.
رد جرجيس وقد وثق من نفسه أكثر:
-وماذا لو لم يجد صاحبه؟

قالوا جميعا:
-يأخذه ويعتني به حتى يجده...وإلا...وإلا احتفظ به.
هتف واحد منهم:
-ولكن لماذا جمعتنا أيها الأب وقلت لنا هذا الكلام المفترض؟ أهو درس في الأمانة؟ نحن لم ننه بعد تراتيل الشكر.

رد جرجيس وهو يلصق الإنجيل بصدره ويعدل عمامته العربية فوق رأسه قائلا:
-هذا ما حدث لي بالضبط، لقد أرسل الرب إلي بنية رضيعة الى باب كهفي من سنين... وخشيت... خشيت عليها من الوأد حية...فأدخلتها الى كهفي... أجل... أجل أدخلتها وربيتها، وقد شبت الآن ولديها ست سنوات، أ.. أ.. أقسم بالرب العظيم هذا ما حدث.... أجل... هذا ما حدث.

صرخ أحدهم وهو يهم بالقيام غاضبا:
-ماذا تقول؟ بنية؟... بنية معك في الكهف؟ منذ... منذ ست سنوات كاملة؟... أيها المحتال الكذاب !.. أيها المحتال الكذاب!.. أكنت

تخدعنا طيلة هذه المدة؟... أيها الحقير... واللات والعزى ان وجودنا معك هو عقاب من آلهتنا أن تركناها واتبعناك، كم مرة قلت لنا لا تصعدوا.. لاتصعدوا... لا تصعدوا إلي وأنا أنزل اليكم... ها.. ها... الكهف هو صومعتي التي أتفرغ فيها لعبادة الرب؟... عبادة الرب؟... آه... الآن فهمت الحقيقة، تبا لك...لقد جعلتنا نحمل العصي بدل سيوفنا، ولولا ذلك لضربت عنقك الآن أيها المخادع المحتال.

هتف آخر وقد تأثر بما قاله صديقه:

-أيها المخدوعون... قوموا من هنا، لنفضحنك عند العرب، ها... ها.. إنهم يظنونك ذاك العابد الناسك، لعلك التقيت ببعض نسائهم وهم لا يعلمون... يا للعار !... يا للعار!

احمر وجه جرجيس وتملكه الغضب والخوف وقال:

-ويحكم، أقسمت لكم أني صادق، والرب وحده شاهد على ما أقول لكم... لم أقل غير الحقيقة.. أقسم بالرب... لم أقل غير الحقيقة...الحقيقة فقط هي ما تلفظت به...

قام ثلاثة منهم وهم غاضبون، ومضوا وهم يلعنونه ويسبونه ،فقد شعروا أنهم خدعوا خدعة كبيرة، وأنهم تحملوا جفاء قومهم لهم بتغيير دينهم من أجل راهب كاذب، بينما جلس الثلاثة الآخرون وقالوا لجرجيس وقد أطرق رأسه:

-لماذا؟... لماذا لم تخبرنا بهذا الأمر من البداية؟

رد جرجيس بصوت حزين وهو يمسح دموعه:

-لقد قبلت هدية الرب إلي كما قبلت حنا هديته مريم الطاهرة العذراء، وقد سميتها باسمها... وسعدت كثيرا بضيائها وحنانها... دعوهم يلعنونني... فبراءتها بلسم لشقائي... والرب باركها وجعلها تتلو معي صلواتي... هذا كل ما لدي الآن... أجل... هذا ما أستطيع قوله... صدقوني... الحقيقة هي ما قلته لكم.. افعلوا ما بدا لكم... أجل... افعلوا ما بدا لكم...

قام الرابع ساخرا وقال:

-لعلها ولدت لك أنت أيضا من غير أم...هه... تبا لك سائر اليوم...دموعك لن تنفعك... لن تراني هنا منذ اليوم أيها اللعين المخادع الكذاب.

شعر جرجيس بدوار شديد في رأسه ،وحرارة تشمل جسمه كله، تنهد وأخذ يردد: " إني صادق.. إني صادق"...

فتح الإنجيل، وبدأ يقرأ بصوت عال، بينما بدأ الإثنان الباقيان يقبلان يديه وهما يرددان معه الصلوات.

كان صخر الابن الأكبر لفاتك قد تسلم زمام القبيلة بعد أبيه، وقد استتب له أمرها، وأصبح أشد فتكا بالعبيد من أبيه، اذ يلاحقه الثأر ويحاصره الذل من كل مكان، ورث كل المتاع والنساء والعبيد، وطرح ثوبا على من اختار من زوجات أبيه ليصبحن زوجاته حتى يتوفاهن الموت، ولم تهدأ نفسه مهما فعل، ومهما شدد وطأة الانتقام، أما العبيد فأصبحوا في وضع أسوأ مما كانوا عليه، ونصبت خشب في ساحة كبيرة لتمزيق لحومهم وكسر عظامهم أمام الملأ، حتى يكونوا عبرة لغيرهم، ولا يقربوا الغدر ثانية ،أما الإماء فكن يمشين حافيات وبثياب ممزقة وتفضلهن أقل الحيوانات شأنا، لقد أصبح الأسياد يحملون العبيد أينما كانوا وزر سالم الذي انتقم لهم من فاتك، بينما زاد صخر من حصانته وكثر عدد الحراس، وجعل فيهم الكثير من قرابته وذويه.

جلس يوما وهو يتذكر شأن أبيه بين العرب، فنادى من يخطب في الوجهاء خطبة عصماء فيها من المدح والسجع ما أحب أن تسمع به العرب، وتعرف أن له شأنا عظيما، وأنه ابن رجل كان لا ينازعه في الشرف والهيبة أحد، فهو يحاول في كل فرصة أن يبني مكانته على مجد أبيه، خصوصا أمام أصهاره الذين حازوا على أوسمة المدح وتربعوا على عرش القبائل، لقد تزوج ابنتهم أروى، وهي من سيدات قومها الذين يحسب لهم ألف حساب، وهي أيضا من جلست في مكان الفارعة أم الأسياد، والتى تحولت الى امرأة كغيرها من نساء الأسرة الوجيهات، تكتفي بمداعبة الأحفاد، أو السهر على شؤون آلهة الأسرة الممجدة، تهيئ بخورها وزينتها، سيما وأن السن قد تقدمت بها وأصبح لأبنائها من الأزواج والأبناء ما تعجز عن إحصائه، فقد استطاعوا في حروب كثيرة أن يسبوا من الإماء والجواري الكثير،

حتى أن صخرا غضب مرة حين كان يجهز الجيوش ويستعد للقتال وقال:
-ما بال هؤلاء النسوة ملأن علينا المكان؟... ارحمينا أيتها الآلهة... أين هم مقاتلونا الأشاوس؟

أجابت أروى وهي تقطب حاجبيها:
-من يلد لك الأشاوس ان لم تكن هذه النساء؟

فقال لها في ازدراء:
-واللات والعزى انا لا نعدكن شيئا، إلا أنكن... هه..الا أنكن تلدن هؤلاء الفرسان الذين يحفظون هيبتنا عند العرب ويحمون بيضتنا أمامهم.
-حسبنا ذلك إذن، وجب عليك الاعتراف يا سيد قومه، نربيهم صغارا، وتدفعونهم الى القتل كبارا.

دخل داره ووضع سيفه، ثم جلس وهو يمسك رأسه بكلتا يديه، فتبعته أروى مسرعة وهي تقول في حيرة:
-مالك يا صخر؟... يا سيد العرب؟... ما الذي حدث؟...

قال في لوعة:
-آه يا أروى... مالنا ولهذه الحرب؟... أراني عاجزا عن خوضها هذه المرة، ولا أرى رجالي الا ينقصون وتجارتي تضعف ولكن...ولكن...
-ولكن ماذا يا سيد الفرسان؟
-ماذا تقول العرب ان لم أخضها؟... ماذا يقول الأعداء؟ سيقولون... جبان وخائر... سيتجرأ علينا بعدها اللبيب والسفيه، وقد تحمل علينا القبائل من حولنا فنهلك.
-تقدم اذن، واجعل لك مكانا آمنا خلف الصفوف حتى لا تصاب بمكروه، ولكن.. ولكن احفظ لقبيلتنا هيبتها يا ابن فاتك العظيم.

همهم قائلا:

-ابن فاتك العظيم... ابن فاتك العظيم.
-أجل يا صخر... أنت لها... أنت لها.

نظر إليها ثم توجه نحو الاله وانحنى وهو يقول:
-أيها الاله العظيم... إنني.. إنني سئمت رؤية اللون الأحمر... أجل...أكره اللون الأحمر...صدقني...آه... انني لا أحب أن أراه ثانية، بوسعك أيها الإله المبجل أن تحقن الدماء... أتوسل اليك أن تجعل هؤلاء العرب يقدروننا ويهابوننا من غير قتال ولا دماء... أرجوك.. لقد تعبت... أخبرني عما تحب أن أقدمه لك من القرابين لترضى عني وتستجيب لسؤلي، وأرتاح مما يعتريني من النصب، أنا ابن فاتك المخلص لك... ابن من كان لا ينام ولا يقوم لشأن الا بعد تقبيلك والتمسح بك.

صاحت أروى:
-صخر يا مولاي...آه... يا ويحنا لو علم أحد غيري مما تقول شيئا، لو رأى أحدهم ضعفك هذا وأنت ابن من كان القوس يستقيم عند رؤيته... تقدم... أما اشتريت من يهود يثرب المئات من السيوف الجيدة.

نظر إليها وقد احمرت عيناه من الحنق وقال:
-ويحك يا امرأة، مالك ولشؤون الحرب؟...أنت لا تفهمين شيئا، وهل تغني السيوف عن السواعد شيئا؟

ردت وهي تضيف الى الإله الصغير بخورا زاد من احمرار عيني صخر:
-رجالك رهن إشارتك يا صخر، ماهذا الذي أسمع؟ واللات والعزى لن يهزمك أحد... وأنت ابن سيد العرب قاطبة... سيد العرب يا صخر.

أجاب وقد خارت قواه وولى ظهره للإله:

-أشعر أن كل واحد في هذه القبيلة يحدث نفسه بما حدثتك به الآن، لو تحدثت آلهتنا لأخبرت بالكثير مما نبوح به لها في خلواتنا دون غيرها، ولكنها صامتة تبتلع مآسينا وتستر مخازينا.
-أراك متعبا جدا يا صخر، أخشى ما أخشاه أن يرى أحدهم صفة ضعف فيك أو يتلمسها من خلال كلامك، أرى أن ترجئ هذه الحرب، استشر الآلهة ثانية.
-أجل هذا ما أراه، ليت تلك الناقة البئيسة لم تدس غنمي، لو لم تفعل لما كنا قد أعلنا هذه الحرب، قلنا لهم سنقتل الناقة فسكتوا، ولما فعلنا، أجهزوا على مراعينا، أتظنينني سأظل ساكتا وأنا ابن فاتك العظيم الذي لا يشق له غبار؟
-ما العمل اذن يا مولاي؟ أرى أن تعيد الاستقسام بالأزلام ثانية.

قام يجر رجليه من الخيبة ويقول:
-تعست هذه الحرب، ولكن لابد من خوضها...أجل.. لابد من خوضها، العرب كلها تموج اقتتالا ودما، وهؤلاء اليهود أثقلوني بالربا، وسيلتهمون تجارتي لسنة كاملة.
-سمعت أن أعداءك أيضا اشتروا منهم سلاحا.

رد صخر وهو يفرك أصابعه من شدة الغضب:
-أجل، هذا ما جاتني به أخبارنا، هذه هي يهود... انهم يبيعون هذا وذاك... ويتغذون على عداواتنا ودمائنا.
-وهل ترى يا سيدي أن أصحبك؟ لابد أن أكون الى جانبك حتى تظهر قوتك، أقول شعرا يرفعك ويضع عدوك.
-كلا.. كلا.. ربما لن أقاتل... و...وانما سأجعل جلبة كبيرة حتى تسمع العرب أننا خرجنا، وأننا جاهزون لمواجهة كل من اعتدى علينا واقترب من حمانا ومرعانا، أظن أن هذا هو ما سأفعله.
-نعم الرأي يا سيدي... نعم الرأي يا صخر.

رفع رأسه فجأة نحو السماء، ونفخ أوداجه حتى يستدرك ما عبر عنه من الضعف والذلة وقال:

-أرى أن من هواني أن أناقش امرأة في أمور كان الأولى مناقشتها في مجلس الأعيان، لكم أنا عاجز عن البوح بسري، يا للآلهة !
لكم أنا عاجز عن البوح بسري !... أي عجز هذا الذي أشعر به الآن؟

وضعت أروى يدها على فمها وأطالت النظر في وجه زوجها الحزين، ثم أتته بشراب لعله يخفف عنه بعضا من الأسى، الا أنه دفعه وتقلد سيفه بنفسه وتوجه نحو الباب دون وداع.

خرج رافعا رأسه نحو السماء وهو يتصنع الحماس والبسالة ،يحرك عمامته جهة اليمين وجهة الشمال، ثم استدار نحو المقاتلين وتفقدهم واحدا واحدا، وأصدر الأمر بإنشاد الأشعار الحماسية ودق طبول الحرب، فيما ظلت أروى تراقبهم حتى أفل صوتهم وذابت صورتهم في تلك الكثبان الرملية.

حل المساء وغطى الظلام المكان ،فأمر بنصب الخيام على مشارف ساحة النزال، هرع الى مكان استراحته ووضع إلهه أمامه، جلس منحنيا الى الأمام، وظل يطلب منه أن لا تقوم الحرب وأن لا تدوي صلصلة السيوف أمام عينيه ،يتأوه دون أن يشعر به أحد، يهمس اليه متضرعا ومتوسلا ومستغيثا وهو يستحضر صورة رجاله الذين قضوا يومهم يتبارون في إظهار بسالتهم وجهوزيتهم أمامه، تذكر كيف كان ينظر إليهم نظرة المسرور الفرح بصنيعهم، فيما يخفي الشفقة عليهم وعلى نفسه التي أجبرها على أداء دورين متناقضين جعلاه يلعن نفسه، ويتمنى لو سيق الى حتفه قبل اندلاع هذه الحرب التافهة، كل الوقت وهو يسأل نفسه: "مالي ولهذه الحرب؟ ...ماذا لو أقبلت على تجارتي التي ستنهار وجمعت مالا أشتري به كنوز العرب؟ سأملكهم وما يملكون، كم قاتلنا وكم حاربنا؟ ليت الآلهة توقفنا... ليتها تفعل... لا بد أن تفكر آلهتنا بهدنة طويلة الأمد، لا بد أن تفعل ذلك اللات...أو العزى... أو هبل... أو مناة ونائلة... سأبوح حينها بسري وآمر بكف هذه الحروب الطاحنة، أتراهم أجمعوا على قيام الحروب في كل مكان؟... في كل مكان.... كيف توافق رأيهم جميعا على ذلك؟...الحروب... ثم الحروب... ولاشئ غيرها."

كاد عقل صخر يجن وهو يفكر في طريقة لإيقاف الحرب مع الإبقاء على ماء وجهه، يتضرع تارة ويتأوه أخرى، يتحول من مساحة

حائرة الى مساحة أكثر حيرة تعقيدا، دون أن يتوقف لحظة واحدة الى أن سمع طقطقات زعيم المقاتلين الذي ضرب وتد الخيمة الحديدي برمحه مستأذنا فقال:

-عمت مساء يا مولاي.

-عمت مساء، ماذا وراءك؟

-رجل ومعه جارية صغيرة يحب أن يقابلك يا مولاي.

-في هذه الوقت؟

-نعم يا سيدي، يقول أنه جاء لأمر فيه عزك.

-ويحك، عزنا في هيبتنا ولا حاجة لنا في من يدعي أن له عزا يهبه لنا، يا لسوء أدبه!

-هل نصرفه يا مولاي لإساءته الأدب؟

-كلا.. كلا.. اذن له بالدخول ولكن.. فتش ملابسه حتى لا يغتالني بخنجر.

دخل الرجل وألقى التحية وقال:

-اسمي جرجيس، وهذه ابنتي مريم، سمعت يا سيد القوم أنك ستخوض حربا طاحنة مع قبيلة وثابة ،وأنا وافدهم إليك سرا، يخبرونك أنهم لا طاقة لهم بحربك وأنت من أنت وسط العرب جاها وحلما وكرما ونبلا... أنت بضعة من والدك فاتك...فاتك المهيب... وكلهم يخشون حتى من ذكر اسمه بعد موته.

رفع صخر رأسه وأخذ ينظر الى جرجيس وهو بلباس عربي أنيق، وعلى وجهه علامات الصدق والخلق الرفيع فابتسم وقال:

-مادمت تعرف من نحن، لم ادعيت أنك تحمل إلينا العز وقد شددت الينا الرحال وفي رأسك رأي يذلك ويذل من أرسلك؟

طأطأ جرجيس رأسه وقال:

-لقد أسأت الأدب مع مولاي صاحب العز والسؤدد.

نظر اليه صخر باسما وقال:
-اجلس، فنحن العرب لا نهين الرسل.

تقدم جرجيس وجلس، بينما ظلت البنية واقفة، فنظر اليها صخر وابتسم وقال:
-ما بال هذه البنية، هل هي رسول أيضا؟
-كلا يا سيدي... انها ابنتي.
قالت بصوت مرتفع:
-اسمي مريم ،أكره الحرب وأحب الرحمة والمودة والسلام.
رد صخر متعجبا:
-يالهذه البنية التي تكره الحروب !...وهل خاضت واحدة منها؟
تقدم نحوها قليلا وجعل ينظر الى وجهها وقال:
-مريم؟...مريم؟.. أي اسم هذا؟
-أجل... أبي سماني مريم، ومعناها :" العابدة."
-العابدة؟...يا للآلهة !... العابدة...أتبيعني يا رجل هذه البنية الحاذقة؟ سأكون لها أبا وزوجا.
أسرع جرجيس وضمها اليه وقال:
-أنت شهم تكرم الرسل يا مولاي، وهذا ما سمعت عنك قبل حضوري الى منزلكم.
-أرى أنك على غير ديننا؟... لكم سمعت عن عبادتك وخلوتك في كهفك.
-أنا نصراني يا سيدي، وهذه القبيلة تطمع في جواري، وقد وعدتهم بعدما سألت عنك أن أكون نعم الرسول المبشر، سمعت أنك من أكرم العرب حين تعفو، وأشدهم حين تغزو، فطمعت في شئ من ذلك ،وجئتك وأنا أعرف أنني سأقف أمام رجل تقدره العرب وترفع من شأنه، أنشديه يا مريم ما يقال في شهامته من الشعر.

وقفت البنية منتصبة وضمت يديها الصغيرتين في أدب جم ،وأخذت تنشد لصخر شعرا جعله يتمدد على أريكته ضاحكا مستبشرا دون أن يدرك أنها أخته التي كان والده فاتك سيدسها يوما حية في التراب، ثم حملت يديها الى السماء تشكر الرب وتمجده، كانت نقوش الحناء

المبعثرة على راحتيها الصغيرتين تزيدان من جمال حركاتها وبراءتها.

لم يشعر صخر إلا وهو يهتف باسمها ويكرره فرحا بها وبخبر السلام الذي جاءت به، قام ومسح على رأسها ثم ناولها فاكهة فقالت : " المجد للرب الذي خلقني وأطعمني "، نظر اليها مستغربا، ثم التفت نحو جرجيس وقال بصوت مرتفع أسمع كل من كان خارج الخيمة:
-اسمع يا جر...جر...
-جرجيس يا مولاي.
-واللات والعزى، لولا أنك أجرتهم وجئتنا متوسلا، لجعلنا جماجمهم أوعية لفضلات عبيدنا، قد قبلت جوارك ولكن.. ولكن لأنهم رعوا في حماي من غير اذني، فإنني...فإنني آمرهم بدفع مائة من النوق الجيدة.
-اجعلها عشرة يا سيدي،أنت أغنى الناس، وأوفى الناس، وأبر الناس بالناس...وإنني كلما خاطبتك ازددت... ازددت طمعا في حلمك وسخائك ووجدتك كما ذكرت العرب.

ضحك صخر ضحكة عالية وقال في كبرياء:
-قد جعلتها كذلك، لديك ثلاث ليال... ثلاث ليال يا جر.. جر... لا تزد عليها ولا تنقص.
-الطاعة يا مولاي...سيدي صخر لا يعصى له أمر.. سيدي صخر لا يعصى له أمر.
-انصرف الآن أيها الرجل الطيب، سنعيد سيوفنا الى غمدها.

نظر الى البنية التي أتمت قضم الفاكهة واحتفضت بنواتها، فتعجب من أدبها وحكمتها، بينما كان جرجيس متوجسا من نظراته إليها ،فأمسك بيدها الصغيرة وخرج مسرعا وقد حقن دماء العديد من الأرواح، أسرع الخطى قبل أن يغير صخر رأيه فسمعه يقول لجنده:
-أعطوه فرسا جيدا... وأكرموه حتى يعود الى مكانه.

عاد صخر سرا الى الهه يقبله ويشكره أن وفر عليه صوت تلك السيوف المجلجلة التي صمت أذنه، وذاك البريق الذي أعمى عينيه بلمعانه وقد اختلط بصهيل الخيول ونقع الغبار وتطاير أطراف الحيوانات والآدميين على الأرض، تراءى له إلهه يحدثه في خياله قائلا: " قد أجبنا سؤلك يا صخر،ها قد أوقفنا الحرب ،ولكن... أسند الأمر الى أخيك وإلا ستلتهم شراسة العرب المقاتلين نخوتك."

شعر بالخوف والحيرة يتملكانه وقال:

-لا.. لا... أرجوك أيتها الآلهة، أنا فقط متعب... ولا أخفيك سرا ان قلت أنني... أنني أحب أن تتوقف هذه الحروب الدموية ولو لخمس أو ست سنوات، أرجوك لا تغضبي علي، ارحميني يا آلهتي المبجلة، فمنذ صغري وأبي يبريني كما يبري النبال... لقد اصطبغت بالدماء من رأسي حتى أخمص قدمي، وان كنت غاضبة علي فسأغير رأيي وأدفع نفسي الى نار الحرب دفعا، وان كنت راضية عني فاجعليني أصغر مستشاريك حتى أحظى بالمكانة الدينية ويتولى أخي المكانة العسكرية.

مكث برهة ثم رفع عينيه نحو تلك الحجرة الصماء وتخيلها ترمقه متوعدة تارة وصافحة تارة أخرى، فهي لا تتكلم ولا تتحرك، وظل يعكس تردده وحيرته، قام الى مكان نومه بعد أن استنفر الحراس، وما هي إلا لحظات حتى علا شخيره من شدة التعب.

وفي صباح اليوم التالي ،خرج مستبشرا، وأرسل مؤذنا يؤذن في الناس أنه لا قتال، وأن أعداءه أرسلوا يطلبون الصفح ويحذرون بطش بني فاتك ويخشون بأسهم، كان كل من وصله النداء يشعر بالفخر ويستأسد متوعدا كل من سولت له نفسه الاقتراب من قبيلته أو مجرد هجو أصغر جرو يتسكع بين خيامهم.

شرب صخر نخب النصر، وعاد وقد اشتد قرع الطبول وعلت الأصوات المفاخرة وأنشدت الأشعار، وما هي إلا يومان حتى كان يزهو وسط أهله وعشيرته، بينما سكنت نفسه وارتاحت لأنه لم يعد الى القبيلة بفرس حوافره مزركشة بقطع الدم الجامد، وجراحات السيوف المنغمسة في غبار صار ناعما بدك الحوافر، ولا رماح ارتوت بالدم الممزوج بذرات الرمل الخشن.

استقبلته أروى هاشة لأن الكاهنة أخبرتها أن زوجها سينتصر لا محالة، منذ أن رحل وهي تحت مشورتها صباحا ومساء، بينما نزعت زوجاته الأخريات عنه السيف والعمامة والخف الحربي، فيما استلقى هو بعد أن واعد أعيان القبيلة بجلسة سمر في ليلة اليوم التالي.

هدأ المكان، وأخذ صخر يحفر في ثقوب ذاكرته فتعترضها الصور الحمراء من كل مكان، انتقل الى كل مراحل عمره فرأى نفسه خارجا من بطن أمه وهو متقلد سيفه، سأل نفسه:" أيكون قدري أن أكون كالأسد وأعيش على الدماء طول عمري؟ ألا يجدر بي أن أرتاح وأخالف نهج والدي الذي انتهى في دماء وعاش في دماء وها أنا على طريقه؟ سيكون إخوتي أول من يقتلني ان خالفت ما عليه آبائي وأجدادي، فأنا جزء منهم، ولكنني.. ولكنني متعب... ونفسي تعاف أن أعيش ممزقا بسياط الدماء، الدماء... الدماء... ماعادت راحة يدي تطاوعني للامساك برمح أو سيف،... ويحك يا صخر، ويحك.... أتنهار وأنت في عز قوتك وسطوتك؟...لا...لا...لا واللات والعزى أنت لها... أنت لها...ومن غيرك يحمي بيضتها؟".

ردد في نفسه:
- أنا لها.. أنا لها..

ظل يرددها حتى أخذه نوم خفيف سرعان ما استفاق منه وقام ينظر من كوة الى سماء الصحراء السوداء، كان خيال الجبال يستقر في ذهنه ويتوهم أنه حارسه كما يحرس القبيلة، سكن كل شئ من حوله وهدأ الا نفسه المتأججة،حتى الحيوانات التي كانت تحدث بعض

الحركات يتراءى له خيالها من بعيد صامتة ساكنة، انه صمت يمزق روحه ويشتت أعصابه،

أيكون وراء هذه الأحداث سراب؟... سراب؟...سراب فقط...ولا شئ بعده؟ أيكون والده فاتك في مكان ما من هذه الصحراء يعيش حياة أخرى؟... أم تراه تحول الى تراب ساكن... هادئ... متوقف عن الحركة وقد ابتلعت الرمال الساخنة لحمه وشربت دمه؟... أي لغز هي هذه الحياة؟...أية أسرار تحملها هذه الصور أمامنا؟... ليتني أستنطق حجرا أو شجرا يخبرني خبرا يقينيا عما أرى من حولي...سأكون له مدينا وأعبده حتى أموت وأنا عاكف على عبادته...

هجمت الصور والأفكار والأسئلة على صخر، فدخل مسرعا وحمل إلهه الصغير، ثم صعد الى سطح البيت ووضعه أمامه وحياه ثم قال: "أستحلفك باللات والعزى الا أخبرتني عن هذا اللامعنى الذي يشملني... أستحلفك أن ترسل متكلما يجيب على تساؤلاتي ان كنت أنت لا تتكلم... فاعلم أن اجاباتك مفتاح راحتي وسعادتي، ان كنت تعرف الها غيرك لديه الاجابة الشافية...فأنا... أتوسل إليك أن تدلني عليه، أرشدني اليه، سريعا... سريعا ولا تتأخر، والا قتلت نفسي وعجلت بنهايتها... نهايتها؟.. نهايتها؟.. يا للآلهة، وماذا تقول العرب؟.. صخر؟.. صخر يقتل نفسه؟.. صخر الذي تهتز الأرض من تحته يفعل ذلك؟ كلا.. كلا.. أنت أيها القمر... لعلك تنظر الي الآن... أتضئ قلبي كما تضئ هذه الصحراء ولا تترك حجرا ولا شجرا الا شملته بنورك؟..فماذا عني أنا؟... أنا؟...ألا تشملني بنورك أنا أيضا؟... أخبرني من أكون؟... وكيف ظهرت صغيرا وصرت كبيرا؟... أتكون أنت أيها القمر هو الإله العظيم الذي يفعل ذلك؟... لكن... لكن... لماذا لا تكبر أنت أكبر مما تكبر ثم تتوقف... ثم.... ثم تعيد الكرة من جديد؟..أخبرني... من يحدد حجمك ويرسل ضياءك؟... لماذا تجعلني أنطق وأرى وأتحرك... ولا تفعل أنت شيئا من ذلك؟ حذار... حذار... لاتخبر أحدا بتساؤلاتي ان كنت تحدث بعضهم وأنا لا أعلم بذلك، انني أستأمنك على أسئلتي وأسراري... أنا واحد من آبائي وأجدادي... أجدادي؟...قل لي ان كنت أنت الاله القدير لم أفنيتهم؟...و متى قررت أن تضع نهاية لوجودهم؟... متى ستحولني الى ما حولتهم اليه؟...أتراني أتحمل أن أدفن في هذه الرمال الساخنة؟...أم تراها تتحملني وأنا من أنا؟.. أنا صخر.. صخر الذي تهتز الأرض من تحته."...

كان القمر صامتا يرسل شعاعا خفيفا يجعل عيني الاله الصغير تبرقان وكأنهما تنظران الى صخر، حذق فيهما وقال حائرا:" تريد أن أحملك الى مكانك؟... أحملك؟...من يحملني أنا؟... دعني أسأل هذا القمر لم يكبر ثم يصغر ولايتوقف عن الولادة والوفاة ألف مرة؟...أتراك يا الهي الحجري قادر على أن تجعلني مثله؟... أحب أن أولد من جديد ولكن... أرجوك... هذه المرة... من غير سيف ولا رمح... سألهو كل طفولتي في الصحراء، وأتعقب ظباءها وأنا أرسم على رمالها مروجا خضراء وقصورا وأنهارا...وأترك قدمي تتلاعبان بتلك النقوش التي تنحتها الرياح على رمالها الناعمة بكل حرية... أجل...بكل حرية من غير أن يعترضني رمح مكسر دفن بها بعد معركة طمرتها الرمال، أو عظم فرس انغرس فيها بعد سقوط فارسه في تلك المعارك البغيظة التي روت رمال هذه الصحاري".

مرت قافلة من الكلاب الضالة تنبح في المكان، فتتبع صخر صوتها الذي اخترق المكان بسرعة البرق وأحدث رجة بداخله، تساءل عما يعنيه نباحها المتكرر في ذلك الليل وتخيل أنه يسمعه لأول مرة ،تمنى لو علم لغتها وما يعنيه ذلك النباح المدوي، لقد غرقت به سفينة التأمل في كل ما حوله من الحيوان والجماد، حمل إلهه الصغير وقفل عائدا الى فراشه، وجد زوجته أروى غارقة في نومها، فأيقظها لتعدل فراشه الى وجهة الآلهة العظيمة المنصوبة في مكة والتي ارتضت لها العرب أقدس مكان ،حتى يكون تحت رقابتها، قامت مسرعة في ذلك الوقت المتأخر من الليل لتلبي طلبه فقال لها:
-أنا متعب يا أروى، وأرى أن تستدعي لي طبيبا.

ولولت وهي ترتعش من الهلع وقالت:
-طبيب؟.. لتحرسك الآلهة، لعل مسا من الجن لحق بك في هذا الوقت المتأخر من الليل، بل لا أرى الا أن أستدعي الكاهنة.
-كلا.. كلا.. أنت تطيعين ولا حاجة لي بمساعدتك أو مشورتك.
-الكاهنة سيكون عندها خبر الآلهة و...

قاطعها صخر غاضبا:

-تعست يا امرأة ،لولا بطش قومك وكونك ابنة سيدهم لألحقتك بالأخريات.
-واسوأتاه ! أتهددني يا صخر وأنت تعرف مكانة قومي بين العرب؟
-ربما حضور الكاهنة أو الطبيب يجعلني أستحملك، عجلي اذن..فرأسي يؤلمني.

ما هي إلا لحظات حتى كانت الكاهنة بالباب وقالت:
-عمت مساء يا سيدي ومولاي...عمت مساء يا أروى.
-عمت مساء يا أمه، تفضلي فمولاك متعب جدا.
-دعيني يا مولاتي أقدم لملوك الجن بخورا... وأذبح هذا الضب حتى يحلو لهم الحضور في المكان.
-كل خدمي في خدمتك، تفضلي.

استيقظ جميع من في الدار،وأخذوا يهرولون ويطردون النوم عنهم حتى يكونوا حاضرين عند كل نداء، بينما انهمكت الكاهنة في إعداد خلطاتها السحرية ،ثم اتجهت نحو صخر الذي كان ينظر في اشمئزاز الى قطرات دم الضب الأحمر تقطر من أصابعها الخشنة دون أن يحرك ساكنا، اقتربت منه وقالت:
-بماذا تشعر يا سيد قومه وفخرهم وعزهم؟

رد بصوت خافت جدا وعيناه الى السماء:
-أظن أنني أنا من يسألك.
شعرت الكاهنة بالحرج وقالت وهي تحني رأسها:
-لنسأل..لنسأل أسيادي من الجن، يا سميح !... ويا ذبيح !... ويا فصيح !... إليكم ما تشاءون مما عندنا، طلباتكم فوق سيوفنا ورماحنا، دماؤنا قطرات تحت أقدامكم، ما خطب سيدنا وتاج قبيلتنا؟

سكتت برهة ثم عاودت النداء ،ثم وضعت منديلا أسود على وجهها وبدأت تتكلم وتقول:

-هاهاها... هاهاها..نحن أسيادكم من الجن ناديتم علينا، سألتم ما خطب صخر؟ صخر؟.. صخر يحب امرأة!...امرأة...هاهاها...

صاحت أروى وهي تركع تارة وتسجد اخرى:
-امرأة؟ أجل... أجل.. انها أنا... أروى بنت جرهم بن صفوان و.. بنت سيد القبيلة وأعز العرب وأعلاهم شأنا وجاها.

نظر اليها زوجها وضم شفتيه حانقا، بينما حملت الكاهنة قطرات الدم ولطخت بها جبين صخر الذي مزق الاشمئزاز قلبه وقالت:
-كلا.. كلا.. لا تقاطعينا ولا تملي على حضرتنا اسما.. نحن نعلم ما لا تعلمون... انها امرأة أخرى شغفته وكسرت قلبه، لا يستطيع الوصول إليها... لا...لا...لا يستطيع أبدا.

نظر إليها صخر وقد ازداد تعبه وخارت قواه وقال:
-واللات والعزى يا ملوك الجن العظام لاأحب إلا امرأة واحدة... انها الحقيقة !... نعم...أحب الحقيقة.
-أفصح يا صخر... أفصح فنحن نعلم ما يدور برأسك وما وقع لك وما سيقع.
-حسنا، أهو الأمر في أذهانكم كما ذكرت؟... أجيبوني... لم لا يسقط القمر؟... من يمسكه؟... لم لا يسقط على رأسي حين كنت قبل قليل أنظر اليه؟...لماذا هو دائما معلق في السماء ولا يسقط؟... من يمسكه؟... لم لا تسقط تلك النجوم وتظل معلقة فلا تفقأ أنوارها عيني؟...من يمسكها؟ من؟.. من؟.. إنني سأجن.

صاحت الكاهنة:
-اللعنة، سيدنا أصابه سحر عظيم، انه يهذي... و...نعتذر...نعتذر لكم يا ملوكنا العظام.

أزاحت الكاهنة المنذيل الأسود عن رأسها وهي تكرر :" نعتذر لكم.. نعتذر لكم."

قال صخر في غضب:

-واللات لولا هؤلاء الملوك العظام، لقطعت رأسك أيتها الكاهنة الكاذبة، ما تجرأ أحد من قبل علي ليقول أنني أهذي، أخرجوها من هنا حالا...أخرجوها من هنا حالا...

قامت مهرولة وهي تشعر أن عملها سيتوقف اذا طرح كل واحد مثل تلك الأسئلة التي أنعشت عقل صخر وجعلته يفكر في استدعاء الطبيب بدل مشورتها، ويسأل عمن يضئ القمر وقت السحر، وبينما هي في الطريق، اذ لحق بها أخوه لأبيه عبد شمس وكان دائم الكره له فقال وهو يقبل رأسها مستحملا روائح الأبخرة النتنة الممزوجة بالدم المتخثر على جبينها:

-ما الخطب؟... وماذا حدث له يا أمه؟ اصدقيني.

-أتكتم الأمر يا عبد شمس؟

-أكتم؟...أجل.. سأكتم كل الأسرار التي تبوحين لي بها.

-لقد جن الليل الآن، وأرى أن تدس له سما في الصباح حتى لا تشمت بكم القبائل وتنزل هيبتكم.

-وما وجه جنونه؟... أفصحي...لكم سررت لهذا الخبر.

-لقد أصبح يرى القمر والنجوم ساقطة فوق رأسه عندما صعد الى سطح البيت... فنزل الى الدار مذعورا وأيقظ الجميع!

-هه..هه.. واللات ما رأيت جنونا كهذا، انها لعنة الآلهة لحقت به، توسلت اليهم أن يضربوه ضربة قاضية...هه... وقد فعلوا.

-اسمع يا عبد شمس، سيضحك الناس في الصباح اذا علموا بالخبر، تخلص منه قبل طلوع شمس غدك، هذا هو رأيي، وهو.. وهو أيضا رأي ملوك الجن...بل هو طلبهم منك، أسمعت يا عبد شمس؟

-سمعت...سمعت وطلبهم لا يرد.

انصرفت الكاهنة وتركت عبد شمس يضرب كفا بكف وقد تهللت أسارير وجهه وتهيأ للفتك بأخيه صخر عبر إطعامه سما.

في مساء اليوم التالي كان صخر على موعد مع ندماء أخيه في مجلس السمر، كان الكل يعيش تلك اللحظات الممتعة تحت ضوء القمر الا صخرا، فقد كان يتكلف المرح وينظر من حين لآخر الى السماء من فوقه، لقد كانت ليلة باردة شيئا ما، ولكنها لم تطفئ ما بداخله من حرارة الحيرة والتساؤلات، قمر مضيء لا ينطفئ !...نجوم معلقة لا تسقط أبدا !... سعف النخل يرسل ظله ولا يخطئه !

جلس الى جانبه عبد شمس وهو يخفي سما قاتلا ويتحين الفرصة لدسه في خمرته وقال:

-قدم إلي اليوم هبار بن شاس ومعه عروض أسلحة مغرية، أربعمائة ذرع ومائة وخمسون سيفا، وقد طلبت منه أن يحضر سمرنا هذا فأبى.

-أبى؟... أهناك من يرفض حضور مجلسنا المهيب ويرد دعوتنا؟ من يأبى شرف جلوسه حيث نسمر؟

-نعم يا صخر، هبار يرفض ذلك مدعيا أنه ومن معه يسبتون ويكمنون من العصر الى غروب اليوم الذي يليه.

-يسبتون في ديارنا ولا ينزلون عند رأينا؟... ستسمع العرب أننا نؤوي من لا يطيع أوامرنا ،بل نعقد صفقاتنا معهم ونأتيهم أموالنا التي تعبنا في تحصيلها، اللعنة...أية ذلة هذه؟ لا شأن لنا بسبته، أحضره إلي الآن لأعلم أي اله هذا الذي يترك لأجله صفقة كبيرة ومغرية.

-أرى يا صخر أن نتجاهله ولا نعكر صفو سمرنا بعناده، سيجلب لنا متاعب يهود يثرب ودسائسهم بين القبائل.

-أحضره حالا يا عبد شمس ولا تزد على غير هذا شيئا.

قام عبد شمس وقد ملأ الغيظ قلبه، وامتطى الفرس واتجه هو والحراس الى شعب الثعالب، فنادى على هبار ثلاث مرات فلم يخرج، مكث قليلا ثم عاود النداء فلم يجبه أحد، أعطى أوامره للحراس بكسر الباب، فدفعوه بضربة واحدة، فاذا هبار واقفا ومعه

ثلاثة من الأحبار، دخل عبد شمس عليهم وأغلق الباب دون الحراس فقالوا بصوت واحد:
-ويحك يا عبد شمس، نحن في سبتنا، هل تم كل شئ بسلام؟
-كلا.. كلا.. ذكرت له صفقة هبار لينشغل بالكلام حتى أدس له السم في خمرته... ولكنه...هه...أصر على مقابلته.

خطا هبار من مكانه خطوات مذعورا وقال:
-ما الذي يريده مني؟ أنا في سبت.
-ربما سيسألك عن الهك الذي منعك من عقد الصفقة.

ضحك أحد الأحبار ملء فيه وقال:
-هه.. هه.. نحن أهل كتاب، والهنا غير الهكم، نحن شعب الرب المختار، ليس علينا في الأميين سبيل، سيبعث منا نبي قريبا نمحو به صخرا ومن معه من صخور الدنيا ،ونحكم الأرض شرقا وغربا.

قال الحبر الآخر مستهترا:
-لنرحل الى يثرب حالا، وأنت يا عبد شمس، لا تفش سرنا، تذكر أننا أنجدناك.

انسلوا من خلف الدار، وبسرعة فائقة اختفوا وسط الظلام، بينما صعد عبد شمس على الباب الذي طرح أرضا وهو يقول :" انه يوم سبتكم... أنسيتم؟... تمهلوا"! .

دلف الى الخارج سريعا دون أن يثير فضول الحراس، ودخل مجلس السمر، فاذا أخوه مضطجع قد بدأت الخمرة تلعب برأسه فقال:
-سيدي صخر، لقد رحلوا الى ديارهم، سنتفقدهم في الصباح يا مولاي.
-حسنا، ربما وجدت عندهم الحقيقة.
-أية حقيقة يا مولاي؟

رد صخر بلسان متثاقل:

-في الصباح سأشركك معي في البحث عنها يا عبد شمس، أنت من بين كل اخوتي من أراه يستحق ذلك.

أخرج عبد شمس خليط السم من تحت ثوبه ودسه له في الكأس ثم ناوله إياه وقال:
-أنت أيضا من بين كل اخوتي من أراه يستحق ذلك.

سامره حتى اطمأن الى أنه تناول كأس الخمر كاملة ثم اختفى.

بعد أيام ثلاثة أيام بدأت صحة صخر تزداد سوءا، وظلت أمه الى جنبه تعين زوجته على أخذ ما يشير به الحكماء والكهنة من الأدوية والأعشاب والتمائم والبخور والخلطات،لم يعد يقوى على الكلام ،وفضل أن يرفع فراشه الى خارج الدور، سكن لسانه وتوقف نظره وظل قلبه المجروح يحمل سر تساؤلاته المتكررة دون أن يعثر لها على جواب، زاد من ألمه أن لا أحد يعرف ما به حتى أقرب الناس اليه، وحين شخص بصره تماما، قامت القبيلة بضجر عظيم وهي تدعو على نفسها بالويل والثبور، اختفت شهقة موته وسط الصراخ والعويل ولم يسمعها أحد غيره.

كان جرجيس قد تقدم به السن، بينما شبت مريم وفاضت أنوثتها، وأصبحت تخرج معه الى حيث يذهب، تضع عليها أحيانا لباس الغلمان اذا خافت من إغارة المتقاتلين، كان يخاف عليها أكثر مما يخاف على نفسه، وجعل لها من يعلمها الفروسية والقتال، أصبحت قوية البنية مثل أبيها، طويلة القامة ممشوقة القوام تشع عيناها صفاء وذكاء،الا أنها تفيض أنوثة وحيوية، درسها جرجيس الفلسفة اليونانية واللغة العبرانية والآرامية، وكانت تحسن قراءة نصوص التوراة والانجيل، كانت مكتبة جرجيس التي يخفي داخل الكهف غنية بالمخطوطات القديمة التى استقدمها من الروم، ومنها ما ينسب الى بعض أتباع حواريي عيسى، بينما أصبح أتباع النصرانية في القرية يقدرون بالمئات، وكانت مريم هي من يساعد الراهب في تدبير شؤون أولئك التجار العرب الذين تمر قوافلهم من المكان.

جلس يوما يحلب شاته في صباح مشمس أمام الكهف، فجاءته مريم بإناء من صخر ليجعل فيه لبنا، كانت عليها ثياب شفافة تظهر بعض مفاتنها، فانبهر بجمالها وأسر في نفسه شعورا تمنى لو لم يعتريه، فقد خلقه الرب رجلا على فطرة الرجال، ولكنه حبس نفسه في رهبانية اختارها بمحض إرادته، ومريم ترعرعت بين يديه، ولكن الأمر الآن قد تغير، وأصبحت مريم أنثى مكتملة الأنوثة، وهي ليست ابنته حقيقة ولو أنها ظلت كذلك لسنين عديدة، أطرق رأسه الى الأرض ودفع اليها اللبن، ثم نزل الى سفح الجبل يسأل ربه في حيرة شديدة شعر أنها ستمزق قلبه وقال: " رباه... لم أودعت في هذه الغريزة؟...أأمرتني حقا أن أحاربها وأنت... أنت من أودعها في وفي كل الرجال من خلقك؟... أيكون شئ كهذا منك وأنت تحب خلائقك وتحب ما يسعدهم ولا يرهق قلوبهم وأرواحهم؟...أنت يا رب تراني

بقيت لأجلك بلا عقب واخترت أن لا تزاحمني زوجة ولا ولد وأنا في طريقي اليك؟... أيكون نبيك عيسى قد سن هذا وهو الذي يضع يده على أبدان الناس وقلوبهم لتخرج الآلام والأوجاع بإذنك حتى لا يبقى واحد يعبدك والألم يخنقه؟...حتى الموت الذي لا بلاء بعده يدحره ويعيد الحياة الى الموتى بإذنك؟... أأكون ملعونا لو تزوجت مريم؟... ابنتي التي ربيتها منذ أيامها الأولى؟... أتراك تغضب علي وأنا أتزوج ابنتي التي ترعرعت في حماي وجعلتني سبب بقائها في هذه الحياة؟... أسألك يا ربي... وأصلي وأتضرع أن تطرد عني الوساوس وتصرفني عما يدور في نفسي، أبعد هذه السنوات كلها أتحول من أب الى زوج؟... وما العيب في ذلك يا جرجيس؟ ألست أنت أباها الذي لم يلدها؟...انها تحل لك إذن، ولكنني بدأت أكبر في السن وهي مازالت فراشة في هذه الصحراء التي نبتت فيها منذ أول يوم...فراشة تفتحت أجنحتها وبدأت تهم بالتحليق...فراشة جميلة كالتي كنت ألهو بها صغيرا في مروج أرض الروم... أما أنا... فقد اثاقلت الى الأرض وهزمتني السنون... آه... لعل الشيطان يفسد علي عبادتي ويصرفني عن انتظار نبي الزمان الذي يشع نوره على الأرض قاطبة... ولكن... ولكنني رجل ككل الرجال... ولا بد من الحسم، الزواج من مريم... نعم الزواج من مريم... هذا هو ما أرغب فيه...

وضع جرجيس رأسه على صخرة في تلك الشمس اللافحة وقد فتت الألم كبده ،واشتدت حمى الأسئلة عليه، وأخذه بكاء مرير حتى علا نحيبه، ولم يشعر إلا ويد مريم على كتفه وهي تردد:

-أبي.. أبي.. مابك؟

-أبوك يا بنيتي؟ أبوك... أبوك سيجن يا مريم.

ضمته اليها وبدأت تمسح دموعه بيدها الناعمة، فزادت من عذابه..دفعها برفق وشعر أن عليه أن يبوح اليها بكل ما يعتريه، أمسك بطرف ثوبها وجرها وهو يتجه صامتا نحو الكهف، ثم أخرج الأناجيل التي بين يديه وقال:

-مريم، عندما خلق الرب آدم... خلق حواء، فكانت شيطانا غاويا و..

قاطعته غاضبة:

-قلت لك يا أبي سابقا أن هذا الكلام لا يعجبني، ويشعرني بأن هناك من يئد الإيمان في قلبي حين ينسبني الى الشيطان، أبي.. أعتقد أن الرب لم يخلق آدم ويجعل حواء زوجة تؤنسه وفي نفس الوقت شيطانا غواه تلك الغواية العظيمة التي أخرجته من الجنة، أظن أن الانسان إنسان... والشيطان شيطان، وكل واحد منهما يستطيع التحول الى شيطان بالفعل لا بالصورة، أليس كذلك؟

غضبت مريم كعادتها حين تقرأ هذه القصة التي تحول المرأة الى شيطان يخرج آدم من الجنة، فهي تفخر على نساء العرب وفتياتهم، وتشعر بإنسانيتها كاملة لأنها من أهل الكتاب ،وليست من أولئك الوثنيين الذين يئدونها وهي حية ولا يقيمون لها وزنا.

قال جرجيس وقد تعقدت الأمور أمامه:

-اهدئي يا مريم... اهدئي... أرجوك.

-كلا.. كلا..كلا يا أبي، لماذا يخلق الرب مريم العذراء الطاهرة النقية ويحبها ويرسل إليها رسولا في محرابها ويفضلها؟... أليست هي امرأة أيضا؟ أعتقد أن هناك من ينسب الى الرب أقوالا تجعلني شيطانا وتنتقص من أنوثتي...

-أخشى عليك يا مريم، وأرى أنك أوغلت في قراءة كل مخطوطاتي قديمها وحديثها، تمهلي ودعيني أشرح لك أمرا.

-أبي العزيز... ان كنت ستكرر على مسامعي أنني شيطان فأنا آسفة، لا أحب أن أسمع، وسألفظ هذا النص من الإنجيل الى الأبد، أنا أعبد الرب أحيانا ليلة كاملة وأحدثه وأناجيه ويجيبني الى ما سألته وأسعد بالأنس به، تريدني أن أقبل في النهاية أنه خلقني شيطانا غاويا؟ كلا.. عقلي وقلبي لا يطاوعاني أن أعترف بهذه الصفحات، ولولا خشيتي من غضبك لمزقتها.... أجل... كنت سأمزقها يوما فأمسكت عن ذلك.

-مريم يا عزيزتي، أنت تناجين الرب مع الملائكة، وأنا أعترف... أعترف بذلك... كم مرة علت همتي وأنا أراك تحرصين على دعوة العرب الوثنيين الى عبادة الرب بكل الحب والحماس الذي رأيت، كنت أتأمل أعمالك مبهورا، وأسعد أنك متفوقة وعابدة، ولكن..

-ولكن ماذا يا أبي؟

-مريم، أنا أيضا مثلك، أرى أن أراجع بعض الأمور التي قدمت الي على أنها من صميم دين النصرانية، ولكنها عكس ما فطرت عليه، أظن أنني.. أنني سأتزوج!

ضحكت مريم ضحكة دفينة وقالت:

-ستتزوج؟ !! ما هذا الذي أسمع؟... رباه... ما الذي تقوله يا أبي؟ لست أفهم مما تقول شيئا، حقا لست أفهم.
-كما تسمعين يا مريم، لقد عشنا أنا وأنت سنين طويلة، وقد ربيتك أحسن تربية...واقتسمت معك لقيمات رزقي، أصبحت أرى الآن أنني أديت ما علي... جزائي... عند الرب... يسرني أن تعترفي بجميلي.
-أنا متأثرة جدا بكلامك يا أبي، وأعلم أنك فعلت من أجلي الكثير، كان بودي أن أعرف والدي الحقيقيين ما اذا كانا على قيد الحياة، ولكن مشيئة الرب أرادت غير ذلك.
-اعترافك بجميلي يسعدني، أقصد يغريني بمصارحتك.

نظرت اليه مريم نظرات غريبة وقالت:
-قد شكرتك يا أبي... وصلواتي دائما لأجلك لا تتوقف، فأنت من حملني من الضياع الى الاستقرار.
-مريم... انني... أريدك... أريدك زوجة يا مريم!

سكتت مريم قليلا، وفتحت فمها دون أن تستطيع النطق بكلمة واحدة، وجعلت تنظر الى والدها الذي أطرق رأسه الى الأرض حتى كاد يلمسها وهو يمسك بسبحته الطويلة، تشابكت أصابعها دون أن تسطيع فكها عن بعضها وعلا جبينها عرق كثيف ،ثم قالت بصوت خافت جدا :
-زوجة؟ !!!.. زوجة؟!!!..أنت.. أنت أبي.. أبي.. رباه.. ما هذا الذي أسمع؟ انني.. انني لا أصدق ما أسمع..انني أرى فيك مصدر حنان وعطف الأبوة، الأبوة الكاملة يا أبي، و.. و.. وأشهد بذلك، ثم ماذا؟.. ماذا عن رهبانيتك؟... أتتركها؟... انني أشعر أن جنونا سيعتريني الآن ولا أصدق ما أسمع.

قال جرجيس بصوت خافت:

-اما أن نتزوج يا مريم، وإما أن.. أن نفترق ! لنقسم الكهف نصفين، أعلم أنني أكلمك بقسوة لم تعهديها مني من قبل، ولكنها.. قسوة تريحنا معا يا مريم.

-نفترق؟... نتزوج؟... رباه !...ما هذا الذي أسمع؟... ما هذا الذي أسمع؟... هذه خيارات صعبة... كيف أفترق عنك وأنت أبي؟... بل كيف أتزوجك وأنت أيضا أبي؟... رباه أدركني... ارحمني... انني أكاد أجن...

نظر اليها وقال بصوت حزين:

-أنا أيضا أكاد أجن... أنا... أنا أبوك بالتبني ولست أباك الحقيقي يامريم...أنت تعرفين ذلك.

وضعت رأسها بين يديها وقالت والبكاء يعصر الحروف في فمها عصرا:

-يا لهول ما أسمع !...يا لهول ما أسمع...!

-أعلم أنني يا مريم وضعتك في مأزق، المأزق الآخر الذي يطوق الأمل في قلبي، هو حين يعلم مجلس الرهبان والأساقفة بالأمر، سيطردونني.. أظن... سيقتلونني...أ...أ.... أنا محاصر من كل مكان يا مريم... هذا كل ما في الأمر.. اذا أنا قتلت فإنني أخشى عليك أن تبقي وحيدة من بعدي.

ردت مريم في دهشة:

-أنت يا أبي... أنت... تخشى علي أن أبقى وحيدة لأنك فيض الحنان، أنت أبي الرائع المحب، أنت...أ..أ..أنت دخلت ذاكرتي وحياتي كأب، ولا يمكنني أن أراك غير ذلك... أبدا لا يمكن، مازالت صور ملاعبتك لي ومداعباتك البريئة ماثلة أمامي... أذكر دائما أنك كنت تلتقط البلح الناضج من تحت النخيل وتناولني إياه... بينما تكتفي أنت بتناول النيء منه وتشكر الرب على ذلك شكرا... أذكر أيضا أنك كنت تربطني بالدلو بإحكام، وتنزلني الى البئر لأنعم بالرطوبة حين يشتد حر الصحراء ويلتهب كهفنا، وتراقبني

وأنا أجوب طرفي البئر وممسكة بالحبل التي تحركها من حين لآخر وأنت تتفقدني... أتذكر يا أبي يوم صرخت وأوهمتك أنني سقطت في قاع البئر؟... فأصعدتني فورا ورويت صدرك دمعا خشية علي؟... ربما لو ظل أبي الحقيقي حيا ما أغدق علي من الحنان ربع ما فعلت، أو ربما وأدني حية حتى لا أجلب له العار... أنت أب عظيم... أنت أب عظيم حقا...وأنا...أنا... أشهد بذلك، مازلت أذكر كل حركاتك وحنانك وعطفك علي، كيف لي بعد هذا أن أكون زوجة لك؟.. كيف؟.. إنني حقا أكاد أجن...

أطرق جرجيس رأسه وأخذ يداعب لحيته التي علاها البياض وقال:
-أدركت مع الزمن أنه كان علي أن أتزوج، و...و...وأنجب أطفالا، وأذوق سعادة البقاء بعد مماتي... لقد عشت معك حنان الأبوة ولكنني... خسرت حنان الزوج وعطفه، وددت تدارك ما فات ولكن... هيهات.

أشفقت عليه مريم وانهمرت عيناها دمعا ساخنا وقالت:
-اما أن تبقى أبي الذي أسعد به... وإما أن تكسر حبي لك واعترافي بجميلك، يؤسفني يا أبي أن أخيرك وأزيدك غما، ولكن.. صدقني أيها الأب العطوف اذا قلت لك أن مكانتك في قلبي أكبر مما تتصور، لست أدري أي مصير كان سيلحقني لو لم يخترك الرب ويأت بي الى كهفك، الرب سينجيك كما أنجيتني باذنه... سأصلي لك صلاة المساء...سأصلي وليغفر لنا الرب جميعا...

تنهد جرجيس وأغمض عينيه الدامعتين لحظة وقال بنبرة حزينة:
-مريم يا بنيتي... كان بودي أن تستجيبي لطلبي، وخيرتك بين البنت والزوجة فاخترت أن تكوني بنتا، أنا لك أب ما حييت... أنا لك أب ما حييت... فقط أطلب منك أن تقرئي مرة أخرى رسالة بولس لأهل كورنتيا حيث قال:" من الفخر للمرأة أن يغطى شعرها "... واقرئي أيضا قول بطرس: "على المرأة ألا تعتمد الزينة الخارجية لإظهار جمالها."

قاطعته وهي تمسح دموعها وقالت:

-فهمت يا أبي، سأنتقل أنا الى الحجرة الخلفية للكهف، أنت تعلم أنني أطبق تعاليم الرب ما استطعت، أنت أبي الذي...

قاطعها قائلا:

-كلا يا مريم..كلا... بل سننزل الى دار الضيافة في سفح الجبل، وسأصعد الى الكهف لوحدي متى أحببت ذلك، سننتظر معا قدوم نبي الزمان... هذا ما جمعنا الرب عليه، وهذا قدرنا... هذا قدرنا...

-ولكن يا أبي، أنا ترعرعت في هذا المكان و...

-مريم يا ابنتي...اسمعيني جيدا... هذا قراري... أجل هذا هو قراري...أما... كتبي فهي لك كلها من بعدي، أتمي عملك في ثني هؤلاء عن عبادة الأصنام وليباركك الرب... و...لن أتخلى عنك أبدا.

قامت مريم تخطو خطى حزينة ومضت الى دار الضيافة تتفقد الأتباع، لقد كثر عددهم وصاروا بعدد قبيلة صغيرة من النصارى العرب، وبلغ الخبر الى أساقفة الروم، فأرسلوا مددا الى جرجيس الذي انزوى في كهفه ولم يعد ينزل الا لماما، بل انه عاد الى زناره القديم وسبحته الطويلة وعلق صليبه واختفى في محرابه، شعر أن الرب أرسل إليه بذرة رعاها حتى آتت أكلها فانتهى دوره، وعاد الى الوحدة والانعزال، فقد بدت عليه علامات الكبر ولم يكن له حظ في انشاء عائلة، حاولت مريم أن تفهم معاناته ،ولم تعد تصعد الى الجبل إلا لتتفقد حاجياته وهي متلفعة بثوبها ،وحريصة على عدم خدش مشاعره مهما كان الأمر، كما أنها كلفت أحد المخلصين بخدمته والقيام بشؤونه الشخصية.

كان العرب يتعجبون من جرأة مريم، كيف للأنثى أن تأخذ بزمام القرية وتعلو المنابر، بل كيف لهؤلاء النصارى السذج أن يتوجوها عليهم، كانت هي من يفرض الهيبة والاحترام، وهي من تكلفت بمالية القرية وأمرت بشراء ابل كثيرة وفرسان قوية،كما أنها أمرت بتدريب الشبان على القتال ،وأحضرت يهوديا من خيبر يعلمهم صناعة السيوف والدروع، ليس أمامها عبيد ولا أسياد، بل الكل خلائق الرب يتفاضلون بما يقدمونه من الاكرام والعمل الشريف لقريتهم، البيض والسود سواء، لا يفضل أحد على أحد بلون ولا نسب ولا جاه، تتابع الحروب الطاحنة من حولها، وتتقصى أخبارها، وترى أنهم سيلتهمون قومها يوما اذا لم تعد العدة العسكرية والنفسية اللازمتين، لطالما أتتها العيون بما يتردد من سخرية العرب منها، ومن قبيلتها الناشئة بين الفجاج الجبلية وقرب الجبال الشاهقة ،ولطالما وصلها تهديد عبد شمس وأحلافه بإبادتها.

أمسك عبد شمس بزمام القبيلة بيد من حديد، وبنى مجده على سمعة أبيه المعظم فاتك الذي لا يشق له غبار بين العرب، أخذ نصيبا كبيرا من شراسته، ولا يؤمن إلا بالنزال أمام كل نازلة، تستهويه صلصلة السيوف والعودة بالمفاخر والغنائم والرؤوس المعلقة على الرماح، يحب الشعراء الذين يجدون في كل صولاته مادة غزيرة لتجديد الحماس واستبدال الحروف بالحروف، اذ تظل المعاني تحكي البطولة والشهامة والقوة والفتك بالأعداء بيد من حديد.

اجتمع أعيان قبيلته يوما وقالوا له مجتمعين:
-لا بد أن ننظر في شأن هذه المرأة التي بدأت تقوى الى جانبنا.

ضحك أحدهم وقال ساخرا:

-يا لخيبتنا !... منذ متى ونحن نناقش أمور النساء في مجالسنا؟

رد آخر:
-لقد صدت هذه المرأة المشؤومة الكثير عن آلهتنا، ولم يعودوا يتقربون اليها، وإنما أعناقهم دائما الى السماء منتظرين.

قال عبد شمس في غضب:
-ويحها... أما سمعت بشراستنا؟... أما أخافها بطشنا؟... فلنغيرن عليها، ونأتي بها أسيرة الى دور الاماء... ههه... تطحن طحيننا، وتسقي ابلنا، وتجلب لبعيري الماء من أبعد بئر عن ديارنا...ههه...

لم يكن يدور بخلد عبد شمس أن المرأة التي يتحداها نشأت في دور اماء أبيه فاتك، وكتبت لها الحياة في كهف على مسافة قريبة منه، لقد عجز النسابون عن تحديد نسبها والمكان الذي ازدادت فيه، حتى أكثرهم خبرة وحنكة لم يفلحوا، وظلوا يتساءلون حين عظم شأنها من أين أتى بها ذلك الراهب الذي يدعي أنها ليست ابنته حقيقة.

كان المجلس مليئا بالجدل واللغط... فاختلفوا كثيرا في طريقة القضاء عليها، قال الأخ الأوسط لعبد شمس:
-أرى أن لا نتعجل في مهاجمتها، فقوافلنا تمر قرب الجبل الذي استقروا وراءه... لديهم قوات مدربة ومحنكة... فرسان مرتبون، كانهم حجاب مجالسنا.

قال أحد المقاتلين الشجعان:
-سمعت أنها دربت الشبان على القتال....ههه.... وجندت حتى النساء....ههه.... النساء يا مولاي عبد شمس العظيم....هههه...

ضحكوا جميعا ضحكة عالية وقال أحدهم:
-واللات والعزى ان هذه لهي مسخرة الزمن...ههه... نساء؟...نساء ضعيفات...نساء حمقاوات لا يصلحن الا

للفراش؟....ههه....يحملن السيوف؟... ما هذا الشر الذي غزا العرب؟

رد واحد منهم:
-ههه... أيحملن السيوف بقرون شعرهن أم...ههه...بأيديهن وهن يجررن الذيول؟.
-ههه.. ههه... ليت أجدادنا يأتون ليروا ما حل بأطراف مكة العظيمة ويعجبوا مما نرى... ههه...
-سيسوء آلهتنا المبجلة ما ترى وتسمع، سيسوءها لا محالة.

كان مروان بن فاتك أحد إخوة عبد شمس يسمع دون أن يتكلم، ولديه بعد نظر وذو مشورة في الحرب والسلم فقالوا له:
-نحن ما سمعناك يا حكيم، وما علمنا رأيك في الذي قلنا.

هم أن يتكلم الا أن عبد شمس تدخل مقاطعا وقال ساخرا:
-قبل أن تقول رأيك يا شريف قومه، دعني أعرض عليك صك عبوديتها، حين سألت عن نسبها ووصفها نبئت أنها أشبه الناس بك، أخبرني ان كنت تريد أن أنكحكها اذا سبيناها... ههه... ههه... هي لك.. اذن وأنا موافق من الآن.

رد مروان بصوت خافت:
-الذي أخشاه هو أن يكون الروم من ورائها، الروم وما أدراك ما الروم يا مولاي عبد شمس، لقد اشتد عودها وأقبل عليها رجال كثر، ولها مقاتلون أشداء، نحن سكتنا دهرا، وما علمنا كيف قويت شوكتها وعظمت هيبتها، لا.. بل إنها تحشد هممهم وتعدهم نبيا في أرضنا نحن... أسمعتم؟ في أرضنا!

قال آخر:
-صدقت، كلهم ينتظرون، وكلما مررنا عليهم الا سألونا عما اذا كان قد ظهر في مكة أوفي أطرافها رجل يربطهم بالسماء، يحفظون أوصافه ونعته... و...و... يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وقف عبد شمس مزمجرا وقال:
-اللعنة، ما هذا الهراء الذي أسمع في مجلسي؟...أنسيتم من نحن؟... يا للعار !... واللات والعزى لنزحفن إليها زحفا، ولنعلقن خلاخلها على أقدام آلهتنا، لا.. بل في خلاء إمائنا.

تدخل مروان بن فاتك وهو يستعجل الكلام:
-مه يا مولاي، انها لا تضع خلاخل، ولاتتزين تزين النساء الحرائر، وانما تتلفع بثوب حتى أخمص قدميها، ولا يرى منها الا الوجه والكفين، لو رأيتها يا مولاي في مجلسها...

قال عبد شمس غاضبا:
-ويحك... ثكلتك أمك، أو حضرت مجلسها؟... كيف عرفت؟

تلعثم مروان وأيقن أنه قام بعمل شنيع دون أن يشعر وقال:
-أ.. أ.. أجل، أخبرتها بقافلتي التي دخلت في الشهر الماضي، وكان فيها نصيب لسيدي ومولاي عبد شمس، دفعت لها ربعها على أن... أ...أ... أن يتكلف فرسانها الأشاوس.... بحراستها...أجل...أ... أ... بحراستها حتى وصلت في أمان يامولاي.

اقترب منه عبد شمس وجذب لحيته حتى كاد يخلعها وصاح مزمجرا:
-مروان يا سفيه قومه، أيها الخائن اللعين... أتهين قبيلتي وهيبتي الى الحد الذي تستجير فيه بامرأة؟... امرأة؟... أيها الحقير... يا ويحك يا سوء المجالس، واللات والعزى لولا مكانتك بيننا لضربت عنقك بسيف والدي هذا الذي لم يترك خائنا الا وبتره... آه...آه... ليت أبي كان حيا ليرى أصنامنا التي بها عزتنا وسؤددنا ترى ما أرى، انها تتكسر من المهانة والذلة، قم من مجلسنا يا عدو قومه... قم...قم لا باركتك الآلهة.

قام مروان مذعورا واختفى، بينما هم أحدهم بإبداء رأيه فيما يحدث من حول القبيلة وتغير بعض التوازنات العسكرية، فغلظ له عبد شمس القول وقال:

-واللات لا رأي لكم... ولا أريكم الا ما أرى... الحرب !... الحرب !... الحرب ولا شئ غيرها، هاهم أقرب الناس إلينا صاروا بغاة عندما تركناهم ورأيهم... مروان هذا سيكون لي معه شأن... يستجير بامرأة؟...

هتفوا مذعورين:

-الحرب.. الحرب.. الحرب ونحن لها، نحن وراءك يا مولاي فافعل ما تشاء، لعل هذه اللعينة لم تسمع بنا، الحرب.. الحرب...

انفض المجلس وكل منهم يضمر في نفسه شيئا، فليس منهم أحد إلا وسمع بقوة جنود المرأة وتنظيمهم وبسالتهم، وقد وصل الأمر الى أنها تحمي طعامهم وتجارتهم وما تحمله القوافل القافلة اليهم من تجارات بعيدة.

امتطى عبد شمس فرسه وهو يردد:
-يا لشتيمة الدهر !... يا لشتيمة الدهر !...عبد شمس يحمل على النساء... عبد شمس ابن فاتك العظيم... يحارب الإماء !...وأي اماء؟... يا للعار...اماء النصارى المشتتون بين الفجاج المقفرة.

فشا خبر الاستعداد للحرب الحاسمة، كل من في القبيلة يستعد للقتال حتى الموت، ومواجهة جنود منظمين ومدربين لم يواجهوهم من قبل، أرسل الأعيان قرابين الى الآلهة، وأجمعوا على الاستقسام بالأزلام ليلا ونهارا، توجهوا في اليوم التالي نحو زعيمهم وقالوا:
-سيدنا ومالك زمامنا، لقد هممنا باستشارة الآلهة و..

قاطعهم غاضبا:
-ويحكم، أتهينون آلهتكم الى هذا الحد؟... انه لمن العار أن نقف أمام النساء مقاتلين، لا.. بل هو العار نفسه، ألا يكفيكم هذا؟... أكرموا آلهتكم فستسخر منكم، ويسقط شأنكم عندها وأنتم تستشيروها في مواجهة امرأة...يا لخيبتكم...

قال أحد إخوانه:
-ولكنها حرب يا سيدي عبد شمس، انها حرب حقيقية.
-ليقطع دابركم.. ما أغنيتم عن أنفسكم شيئا، غدا نزحف اليها ليلا ونباغتها، وفي صباح اليوم التالي سنزوجها آخر عبد من عبيدنا، لا ينامن أحد منكم الليلة أبدا، ولا أجد بيتا فيه متخلف، كل واحد سيحشذ سيفه حتى الغروب، انفضوا عني الآن، ومن غير رأيي قطعت رأسه.

الشورى

كانت مريم قد عقدت مجلسا دينيا حضره جرجيس الذي قعد به المرض، كما استدعت إخوته الثلاثة من شرق وشمال جزيرة العرب، وجمعت لهم بعض المتحمسين المتدينين الذين يشتعل في قلوبهم الشوق الى النبي الذي يختم به الرب الرسالات، وكلهم إيمان وهمة، ولا يشغلهم شئ غير العبادة والانتظار والترقب وقالت:
-لقد جعلنا الناس في حيرة من أمرهم وما يعبدون.

قالوا جميعا:
-وما ذاك يا سيدة قومها؟

قالت وهي تهم بالجلوس:
-أشيروا علي ليبارككم الرب... أهو اله واحد أم ثلاثة؟ ماذا حدثتم في أرض الروم؟ أخبروني وإلا اختلف الناس... وما قوتنا الا في اتفاقنا على دين واحد.

قام أحدهم وقال:
-أنا أفكر بما تفكرين به، أعلم أنك تبجلين الرب، ولو قلنا ثلاثة أقانيم لانتقصنا من قدرة الرب وهيبته.

ردت مريم مستفسرة:
-لقد اختلط الأمر على الناس، الصحراء واضحة ومنبسطة، وهؤلاء العرب يحبون الوضوح، فهذه الطبيعة أمامهم عارية لا يحجبها الا ظلام الليل، كيف نقنعهم بالتثليث والوحدانية في آن واحد؟...كيف نفعل ذلك؟... نحن على دين عظيم لولا هذه العقدة.

سكتت مريم قليلا ثم اقتربت من جرجيس وقالت:
-كنت دائما أسألك يا أبي :" أليس المسيح يعبد الرب؟ فتجيبني نعم، فأقول: اذا كان هو الرب الديان، فكيف يعبد نفسه؟ فكنت تسكت ولا تجيب."

رفعت رأسها متوجهة نحو المجلس وقالت:

-مازلت أسأل نفس السؤال...أجل.. ما زلت أسأل نفس السؤال...، أتمنى أن أرى نبي الزمان وبشرى موسى وعيسى ليشفي ما بداخلي من تساؤلات... لكم أتمنى أن أراه...
....صدقوني...لكم أتمنى ذلك.

استدارت نحوهم وأردفت قائلة:
-لذلك جمعتكم اليوم هنا، وأظن أنني لن أسمح بانفظاض هذا المجلس حتى يبدي كل منكم رأيه، وتشيرون علي بما ننتهي إليه ونقطع حيرة الناس، فدعوتنا لهم في قوة حجتنا وبياننا، وانتظار النبي البشارة هو مصدر آمالنا.

لم تكمل مريم كلامها حتى دخل رئيس الجند مسرعا ومن غير استئذان وهو يقول:
-مولاتي... أيها المجلس المبجل... أستسمحكم عذرا، هناك خبر هام أريد أن أبلغه الى مولاتي عاجلا.

نظرت إليه المرأة في حيرة وقالت:
-قل ما عندك، ان لم يكن هؤلاء مستشاريي فمن يكونون؟... هم أهل حل وعقد في مجلسي، ومشورتهم تلزمني.

قال رئيس الجند وهو ينظر اليهم جميعا:
-قبيلة عبد شمس يا مولاتي تستعد لمباغتتنا بالحرب... عيوننا لديهم أتونا بالخبر قبل قليل.

قصدت مريم كرسيها مرة أخرى فجلست ثم قالت:
-الحرب؟.. الحرب؟... رباه ! هؤلاء لا يهدأون، هذه الحجارة التي يعبدون من دون الرب، لو نطقت لأخبرتهم أنها معنا تنتظر قدوم نبي الرحمة الذي سيكسرها ويعيدها الى مكانها الطبيعي بين الجبال، ويشع نوره في الأرض شمالا وجنوبا وشرقا وغربا.

قامت من مكانها ،واقتربت من جرجيس الذي سقطت حاجباه فوق عينيه من شدة الهرم وقالت:

-أتذكر رؤياك يا أبي؟... هؤلاء يحاربوننا غدا...

قال رئيس الجند:
-هذا تهديدهم الثالث... وربما الأخير...فهم عازمون على محونا من هذه السفوح مرة واحدة...
-سنصلي ونطلب النصر ثم نجهز قواتنا، لقد قال مرقس في إنجيله:" لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه، فيكون لكم "، هذا رأيي إلا اذا كنتم ترون غير ذلك، فأنا أنزل عند رأيكم، فأنتم جماعة وأنا فرد واحد.

قام أسقف من الشام كان ضيفا عليهم وقال:
-لديك من الحكمة ما أبهرنا، ولكن ليس الآن أوان الكلام، انهم يستعدون كما جاء في الخبر.

ردت مريم وهي تتوجه نحو رئيس الجند:
-أ تأكدت بنفسك يا رئيس فرساننا؟
-أجل يا مولاتي، أجل... أجل... بثثنا بينهم سبعة من الجواسيس في شعاب مختلفة، واحد منهم لا يعرف الآخر، وقد جاءوا جميعا قبل قليل بنفس الخبر.

قالت مريم:
-حسنا... الوقت ضيق الآن، هيا يا رئيس الجند... اعقد لنا المجلس العسكري على عجل ...

التفتت نحو الحضور وقالت:
-وأنتم يا سادة...لابد أن تلحقوا بنا...

خرج رئيس الجند مسرعا، بينما طلب جرجيس أن يصعد به الى كهفه فقالت له مريم:
-ما احتجناك يا أبي لأمر كما هو الشأن الآن، لابد أن تبقى بيننا.

توجهت نحو إخوته ومن معهم وقالت:
-وأنتم... أحتاجكم جميعا... فما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون.

رد جرجيس وقد أعياه الهرم:
-سأذهب للصلاة ودعاء الرب، هذا هو ما أستطيع تقديمه لكم.
-كما ترى يا أبي، نحن نحب السلم ولا شأن لنا بالدماء والحروب، اننا لانخشى على أنفسنا بقدر ما نخشى أن تتربع هذه الأصنام على الصحراء، لقد ارتوت رمالها بما يكفي من كثرة ما ذبح لها من القرابين.

رد جرجيس وهو يمسك بصليبه:
-مريم يا بنيتي... مجلس الحكماء يا أعزائي... سأدعو الرب أن ينصركم...سينصر الحق على الباطل ويملأ هذه الأرض بمن يعبده... ليبارككم الرب جميعا، ترحموا على الراعي عمرو، فقد كان له بينكم شأن، ولا تنسوا تجهيز أبنائه فهم من أوفى الناس.

قالت مريم وهي تنحني أمامه:
-ستتجهز كتائب القتال حالا يا أبي، ولو بقيت معنا لباركتها.

سكت جرجيس قليلا ،وأشار الى خدمه ليحملوه وعاد الى كهفه، أما إخوته فقد تملكهم الحزن على تلك القبيلة الصغيرة الفتية المؤمنة بالرب وسط بحر هائج من الأوثان فقال أحدهم:

-نرسل اليهم رسالة مفادها...

قاطعه أحد المستشارين:
-العفو يا سديد الرأي، إنهم أميون... أميون لا يقرأون ولا يكتبون.

قال آخر:
-ليكن... سنرسل رسولا يقرأها عليهم، نحن هنا لانتظار نبي الزمان وليس للقتال، وما جئنا لهذا أبدا.

قالت مريم:
-وهل ترى أن من بدأ يتجهز ويعد العدة، وسيخرج لقتالنا في الغد القريب بانتظار رسائلنا وحوارنا ومفاوضتنا؟

قال آخر وهو يفرك أصابعه:
-أرى أن نعجل برسالة شفوية بليغة وحكيمة.

هتفت مريم قائلة:
-هل ترون هذا يا سادة؟

رد أكثرهم:
-حسنا، أكرم وأنعم، رأي سلم وسنأخذ به، لا نريد قتالا... وقد كان عيسى نبي رحمة وود.

قالت مريم وهي تتوجه الى أحد الحراس:
-هيا اذن... إلي بالكاتب لنملي عليه ما سيقرأه عليهم، وجهزوا رسولا من أقوى الفرسان وأحسنهم حديثا وأكثرهم حكمة، وليودع أهله فنحن لا نأمن بطشهم.

ماهي الا لحظات وجيزة حتى حضر فارس يتقد حيوية وكأن وجهه قمر، عليه لباس عربي أنيق فقال:
-أحييكم يا سادة.

قال كبير المستشارين:
-مرحبا بك... لقد اخترناك لتكون حامل نيتنا الى هؤلاء الذين يهمون بقتالنا.

اقترب فسلمته مريم رقعة صغيرة كتب فيها على عجل ما يلي:
" جاءنا في النبوءات أن الرب جاء من سيناء، وأشرق من ساعير، وتلألأ من جبال فاران، انها نبوءة في التوراة وهي بشرى عيسى، وفاران عندنا هي سكن آل اسماعيل في هذه الأرض المباركة، ومنها سيخرج نبي تفشو على يديه الرحمة، ونحن معكم ان آمنتم وترقبتم معنا، والا فلا حاجة لنا في قتالكم" .

حمل الرسول الرسالة مطيعا وأسرع بها كالبرق، وما هي الا لحظات حتى دخل رئيس الجند وقال:
-كتائبنا يا مولاتي أوشكت على أن تكون جاهزة تماما، الا أن خبرا أتانا مفاده أن عبد شمس قرر أن يقاتل بعد يومين وليس بعد يوم واحدا، فلم يكمل استعداده بعد، ونحن لا ندري هل هي خدعة أم ماذا؟

قالت مريم:
-هؤلاء تعودوا على القتال والحروب وليسوا مثلنا، ولكن معنا الرب ومعهم أصنامهم، يومهم كغدهم، فأسلحتهم لا تفارق أكتافهم.

قال أحد الحكماء:
-أصبت يا مولاتي، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين.

قالت مريم في ثبات:
-حسنا، أرى الآن أن أخرج لتفقد الجند ولا أحب أن أركن الى هذا الخبر.

خرجت مريم ومعها مستشاروها ومستشاراتها، فاستقلت الجند ورأت أن أن عددهم يجب أن يكون أكبر بكثير مما ترى، فاهتدت الى حيلة ذكية في الحال وقالت:

-سيسبق الفرسان أولا، وستعقد على ذيل كل فرس خشب يجرها في الرمل والتراب حتى يثير النقع، ويرتفع الغبارعاليا، وتظهر أعدادنا كثيرة وغير واضحة المعالم، لا يعرف أولها من آخرها، وسيسبقنا اليهم من يشيع أن مددا جاءنا من الروم، واذا أصروا على الحرب فسنكون نحن من نسير إليهم... لا هم من يسير إلينا.

لم يزد رئيس الجند على أن بارك الرأي ونفذ الخطة، بينما جهز لها مكانا تتابع منه الأحداث بكل حذر وطوقه بحراسة مشددة.

كان عبد شمس قد ابتلع الذل والحقار شعوره وهو يتجهز لقتال امرأة لا يقارنها بأصغر نوقه، ويظهر السخرية والازدراء في كل حركاته، وبينما هو في السوق إذ وصله رسول مريم وعليه أبهى ما تلبسه العرب، فقال له عبد شمس وهو يتأمل منظره البديع:
-بلغني أنك قطعت المسافة في لمح البرق، أخبرني...هل هكذا تكون جنود النساء؟...ههه...ههه...

ضحك ضحكة عالية ثم قلب حاجبيه وقال ساخرا:
-لا ينبغي أن نستقبل جنود النساء في الأسواق، لا بد أن نستقبلهم في دور الإماء... هه... هيا... اتبعني ثكلتك أمك.

انحنى الرسول وتبع عبد شمس وهو في كوكبة من أتباعه وغلمانه، فدخل دار الأعيان الذين سبقوه الى المكان وجلس، هم الرسول بالجلوس أيضا فنهره وقال:
-ستبقى واقفا يا... ههه.. ههه... يا رسول النساء.

قال الرسول في استحياء:
-أحييك يا سيد قومه.
-قل ما عندك مباشرة... فلا تحية لك عندنا.
-لقد استشارت مولاتي قومها ورأوا أن لا تقاتلهم ولا يقاتلوك، فهم حراس قوافلكم، ولم يسبق لهم أن سرقوا أو نهبوا واحدة منها.

استرسل الشاب الهادئ في قراءة الرسالة وتوضيح ما جاء فيها في كل اتجاه، بينما شعر عبد شمس بالغرور والكبرياء وقال:

-واللات أرى أن مولاتك كفتنا شر قتال النساء... أو... لنقل سبي النساء.

التفت الى جلسائه وضحك ضحكة عالية وقال ساخرا:
-كنت أتخيل... ههه... ههه...كيف كان بريق سيوفنا سيقابل دمالج معصمها... ههه.. ههه... فهي خائفة اذن...أليس كذلك؟... مولاتك خائفة...

رد الرسول في كبرياء:
-كلا يا مولاي، فقد جاءها المدد من الروم، ولكنها امرأة سلم وليست امرأة حرب.

رد عبد شمس وقد اشتد حنقه:
-ويحك أيها الرسول الأحمق، أهناك شيء اسمه امرأة حرب؟... ههه..ههه... امرأة حرب !.. ليت أبي فاتك يرعانا الآن ليرى ويسمع ما لم يحدث به من قبل...امرأة حرب...ههه...

التفت نحو مجالسيه وهو يضحك قائلا:
-أسمعتم بمثل هذا من قبل؟.. قل لي يا رسول النساء... أين تضع مولاتك أساورها حين تستعد للحرب؟...ههه...

قهقه الحضور وقال واحد منهم:
-لعلك أيها الرسول الوسيم من يرضع أبناءها...ههه... أو... تجر خلاخلها حين تقاتل الفرسان الأشاوس؟... لعلها ألبستك بعضا منها حتى تأخذ هي دورك...

صاح أحدهم ضاحكا:
-اكشفوا عن ساقه الآن...هيا... هههه.... ههه...

صاح الرسول غاضبا:
-مولاي عبد شمس، أظن أن مهمتي قد انتهت الآن.
-نحن من يقرر ذلك أيها التافه.. يا.. يا رسول النساء الى الفرسان الأشاوس، كنا سنقيم عرسا ونزوجها أشهر عبيدنا أشرم.

ضحكوا جميعا ورددوا:
-أشرم.. أشرم... عبد الشؤم يتزوج سيدة النصارى هههه... يا لخيبتها ...!

قال عبد شمس:
-كنا سنقيم زواجا مشهودا لولا.. لولا أن خوفها منا فوت علينا الفرصة، حسنا يا رسول النساء، بلغها أنني لا أسمع بأحد ترك دين آبائنا وجلس ينتظر معها تلك الأوهام الا فصلت رأسه عن جسده، ولجئتها غازيا بالليل قبل النهار، ولجعلتك دما في اناء يهرق على أقدام آلهتنا اذا عدت رسولا يا وجه النساء، هيا... هيا... انصرف الآن وقل لها أنني سأجعل عرشها بخورا لآلهتنا ورأسها اناء لرماده...

انصرف الرسول وهو يتمثل ما عاناه عيسى من الجحود والغطرسة وسط بني إسرائيل، غطى وجهه بعمامته اتقاء رمال الصحراء الخشنة تحملها الرياح التي أسرع يسابقها.

كان جرجيس قد اشتد به المرض، وقررت مريم أن تبني له بيتا قرب اقامتها لترعاه بنفسها، لم تأل جهدا في الاهتمام به، جلست عند رأسه يوما وقد أصبح عاجزا عن الحركة فقال:

-مريم يا بنيتي، مضت من عمري سنوات كثيرة، قضيت معظمها في الانتظار، وما زلت أنتظر الى اليوم بشارة عيسى الذي أحببته حبا كبيرا... لأنه... لأنه دلني على الرب... ولولا رسالته لعكفت على حجرة صماء من هذا الجبل ووهبتها حبي وحريتي... أنا بفضله غني موفور الإيمان، السعادة الحقيقية يا بنيتي هي أن تسبقك روحك الى سفرها الأبدي، فتزرع الشوق في الجسد ليلحق سريعا ويلتقي بالرب ويقول له : " أيها الرب العظيم، لقد كنت دائما معي... معي في كل مكان... في كل حركاتي وسكناتي، وأنت تعلم ذلك مني" .

قاطعته مريم وهي تضع عجين تمر طازج في فمه وقالت:

-أنت لم تتناول طعاما من أيام يا أبي. ..

-مريم يا بنيتي... لم تعد لي حاجة في طعام أو شراب... أظن أن زيت المصباح قد جفت...

قالت مريم :

-أبي...المصباح لم ينكسر...أجل...لم ينكسر وسيمده الرب بالزيت الى أن ينقدح نوره من حوله...

ابتسم جرجيس ابتسامة خفيفة وقال بصوت خافت:

-أي بنيتي... أمير الجند من أوفى الناس لك، أرى أن تتزوجيه لما له من الأخلاق السامية، أرجو أن أموت مطمئنا عليك... وأرجو أن يكون لك عقب من بعدك... إنني أبارككما. ..

شعرت مريم بالبكاء ينهمر من مقتلتيها كالنهر، وحاولت أن تظهر رباطة الجأش وحسن الوفاء، بينما رفع جرجيس بصره نحو السماء وقال:

-أي بنية... كل هذه السنوات وأنا أنتظر ظهور النبي البشارة حتى أكون من أتباعه... ولو توفيت وعشت من بعدي حتى أدركتيه...فبلغيه منى السلام...واثبتي حين سيخرجه قومه ويعذبون أتباعه...اثبتي يا مريم... اثبتي يا بنيتي... هذه وصيتي اليك... فما رأيت من تشبث هؤلاء الأقوام بتلك الأحجار التي...التي يعكفون عليها ليل نهار إلا القليل... ما زلت أذكر أول ما جئت الى الكهف... رأيت الراعي عمرو لا يفارقها عاكفا عابدا...في صبحه ومسائه... في حله وترحاله... ثم..ثم يلتهمها في آخر اليوم... ليغفر له الرب...

خرجت دمعة ساخنة من مقلة جرجيس وأردف:
-ما أسرع ما تمر السنون يا مريم... ما أسرع ما ينصرم العمر يا بنيتي ويا قرة عيني... الرب بارك حتى رأيته يعبد في سفح هذا الجبل...

اقترب منه اخوته الذين حضروا للتو وقالوا:
-نرى أن نرحل جميعا الى ديارنا يا جرجيس، فقد كبرنا وطال انتظارنا، ولا بد أن نموت الى جانب قديسينا.

رد جرجيس بصوت متقطع:
-ارحلوا أنتم ان شئتم... أما...أنا.. أما...أنا... فقد انتظرت حيا وسأبقى في هذه الديار أنتظر ميتا...
-نحن أيضا سنبقى معك اذا طلبت منا ذلك.
-أجل.. أجل.. أفضل أن تبقوا هنا وتعتنوا بابنتي مريم...وتسهروا على زواجها واستقرارها...لكم هي بحاجة الى بطانة صالحة... مشورتكم تهمها...إنها مباركة وذات فضل...

قالت مريم وهي تبكي:
-لا أطيق أن يهال عليك التراب يا أبي... ولكن مت مطمئنا، لقد نسخنا كتبك كلها...ونشرنا دين الرب في هذه القبيلة ،وأذعنا خبر قدوم النبي الذي سينشر الرحمة في الأرض، ومن لا ينتظر معنا فقد سمع... أجل... أجل...من لا ينتظر فقد سمع...

حرك جرجيس رأسه مستبشرا، وأخذ يوصي إخوته وهو ينظر إليهم مبتسما الى أن أغمض عينيه وأخذته إغفاءة خفيفة، بينما نادى مجلس الشورى على رئيس الجند، وأخبره برغبة جرجيس في زواجه بمريم.

وبعد شهر كامل من الأمل والألم... توفي جرجيس وترك وصية أهم ما فيها أن يدفن في محراب كهفه.

مضت سنوات عديدة، وتحلق أبناء مريم حول قبر جدهم الذي توسط الكهف، يقرأون كتبه ويتلون صلواته ويقتدون به، علقوا وصيته على الجدار الداخلي للكهف، وما فتئوا يهتدون بها.

مضت السنون وظلت جزيرة العرب تموج اقتتالا، وظلت الأصنام تتربع على القلوب، تطوق أكثر من ثلاثمائة من كبارها جدران الكعبة التي بناها إبراهيم لتهوي اليها القلوب وتنقلها الى التوحيد الصافي، وظل بعض أهل الكتاب ينتظرون قدوم البشارة لتزيح صخور العذاب عن الأرواح، وتكسر أواني السم التي سقيتها الى الأبد، ويغرف السادة والعبيد من اناء واحد لا ينكسر أبدا، لم تكن قبيلة مريم التي استتب لها الأمر الا قنديلا صغيرا وسط هذه الظلمة، وأصبح زوجها في خلاف معها حول شؤون القبيلة، ينازعها في شؤون الحكم، ولا يهتم كثيرا لمشورتها والأخذ برأيها في التدبير العام، ويرى أنها أدت دورها وانتهى أمرها ،والأولى بها القرار في البيت واعتزال تسيير شؤون القبيلة فقال:

-أنت حامل يا مريم، وأظن أن هذا سيعيق ممارستك لشؤون قبيلتنا، لتتركن هذا الأمر وإلا غادرت الجند و..

ردت في دهشة وهي تقاطعه:

-أما تكف عن هذا يا أبا جرجيس؟...أما ترى أن خبرتي جديرة باحترامك؟... مهمتك عسكرية بالأساس.

-ولكن حملك ومخاضك سيعوق هذه الخبرة ويربكها...أنت مجرد امرأة يا مريم...أتفهمين؟... أنت امرأة وأنا رجل القبيلة قاطبة...

ردت مريم والأسى يفتت كلامها ويقطع الحروف في فمها قطعا:

-اسمع يا أبا جرجيس... اصغ إلي جيدا... أنا أتعامل بعقلي... وعقلي في كامل قوته ووعيه سواء أكنت في الحمل أو في المخاض، ألا تدري أن الرب تبارك في عليائه أرسل الى مريم العذراء ملكا يكلمها وهي حامل؟...بل وهي في أوج مخاضها؟... أتراه يحدثها وهي غير واعية بالأمر العظيم الذي انتذبها اليه؟... ألا تعرف أنها جاءت قومها بما لم تأت به امرأة من قبل وكان الرب في معيتها خطوة خطوة وطفلها بين يديها الشريفتين العفيفتين؟... أتراها فقدت عقلها؟... لقد كانت نعم العابدة المجيبة... لقد كانت نعم العابدة العفيفة... لكم أتمنى أن أكون على أثرها... ولكن دعني أقول لك أمرا أشعر به الآن:" لقد كررت على مسامعي هذا الكلام ألف مرة... بل أكثر من ذلك بكثير يا أبا جرجيس ولكن... ولكن."...

تهلل وجه زوجها وقال بسرعة:
-ولكن ماذا يا مريم؟... ماذا؟...
-حسنا... ما دمت مصرا فسنجمع أعياننا ونجعل الأمر شورى بينهم.

صرخ وهو يضرب رجله بالأرض وقال:
-ما أراك الا تعاندين يا مريم...وأنا زوجك ولست واحدا من رعيتك وحسب، أنت تعرفين أن ذلك ممكن... أجل ممكن، بل ويسير أيضا...ما عليك إلا أن تتنازلي لي بشكل كامل عن شؤون القبيلة... أتسمعين؟... لقد غدوت مسخرة بين أسياد القبائل وعبيدهم...

نظرت اليه مريم وهي ترى الغضب يهجم على وجهه ،ويرسم عليه تقاسيم آراء عبدة الأصنام الذين لا يعدون النساء شيئا وقالت في تحد كبير ممزوج بمرارة أكبر منه:
-أحس أن الرب ائتمنني على هؤلاء الناس الذين تركوا وراءهم أحجارا وعبدوه، ولم يخذلوننا أو يسرفوا علينا... لم يخذلوننا يا أبا جرجيس... وآمنوا بعيسى دون أن يروه وهم الذين يفتحون عيونهم على الأصنام بكرة وعشيا...

اقتربت منه أكثر وأمسكت بطرف ثوبه وقالت:
-أبا جرجيس...أنت تعرفني أكثر من غيرك... و أنت من يعلم أن شيوع ديني هو كل همي... وشؤون الحكم والسيادة والزعامة لا تشغل بالي كثيرا...

قاطعها أبو جرجيس بسرعة وقال:
-تنازلي... اعهدي إلي اذن...لم لا تفعلين؟...
-اذا كنت سأعهد لأحد...فاعلم أنه لست أنت بالتأكيد... حرصك هذا على الوجاهة والزعامة يؤرقني، اعلم أن كل ما حققناه من انتصارات وانجازات لم يكن بسبب خبرتك العسكرية وحدها، ولولا عناية الرب بنا... لذابت هياكلنا وسط الاقتتالات التي لا تهدأ من حولنا كما يذوب الملح في الماء، ولزحف فرسانهم الى حمانا... ولمزقتنا حوافرهم شر ممزق.

سكت زوجها قليلا وهو يشعر أنه جرح كبرياءها وما تدفنه في قلبها، وأنه مستشارها العسكري ويغيب عنه الكثير من مسائل الشؤون الدينية والاجتماعية مما تحيط هي به فقال:
-حسنا يا مريم، ربما تعهدين الى ابني جرجيس... أليس كذلك؟... أو... الى هذا الذي في بطنك...وأنا...هه...ولي أمرهما...
-أبنائي، وهذا الذي في بطني، سأنذرهم لعبادة الرب، وسيعودون الى محراب أبي مادام إصرارك أنت وجلساؤك من الجند على قطع الطريق أمام الوعد المنتظر... لقد غدوتم تنظرون الى حوافر الابل وتركتم سنامها... أنسيتم أننا ننتظر؟... ألا يجدر بنا أن ننشغل بالبناء؟... أجل... البناء...البناء ولا شئ غيره، لنكون لبنات في اشاعة كلمة الرب التى اقترب أوانها؟... أليست هذه وصية عيسى رسول الرب إلينا؟...أنتم الجند... آه... لقد تحولت قلوبكم الى سيوف لكثرة ما برقت أمام أعينكم، كم أخشى أن لا تترقبوا الوعد وتأخذكم الدنيا وزخرفها، كم أخشى أن تتفرقوا وتطلبوا السيادة والزعامة لأجل شهواتكم... لقد بنينا هذا الصرح بناء...وها قد صعدتموه وأقامت لكم العرب وزنا، ولكن.... ولكن عندما تنزلوا...فلن يأبه بكم أحد... أتسمع؟...لن يأبه بكم أحد...

خرجت مريم ومرارة إصرار زوجها على غصب مكاسب قبيلتها تشغلها... رأت فيه ذلك العربي المنغرس في بيئته الذي لم يستطع اجتثاث صور الوأد من أعماقه... لا يرى أن للمرأة شأنا فضلا عن إبداء الرأي والمشورة، شغلته المهام العسكرية عن التأمل ومقاومة

التهكمات، وغدا لا يرى المرأة الا كائنا ضعيفا لا يصلح للمنازلة والقتال، تستهويه عضلات فرسانه الأشاوس ولا حاجة له بالضعفاء، لم يغير فيه خطاب الرب للرجال والنساء على السواء الكثير، قوة بدن الرجل هي ما يستهويه، أما قوة العقل ورجاحته فلا تمثل له الكثير، لطالما ردد على مسامعها كلما جد الجد وأراد أن يسفه عقلها ورجاحتها: " المرأة ضعيفة ولا تصلح لشئ "، لطالما ابتلعت كلماته الجارحة وكتمت جراحها، وتمنت لو عاشت حتى يظهر نبي الزمان فتبثه شكواها.

مرت سنوات طويلة، وظلت مريم تكابد وتقاوم الجور من الداخل والخارج ،واستطاعت أن تربي أبناءها أحسن تربية ،وأن تجعل منهم عبادا للرب كما أرادت، واختارت لهم المهام الدينية، كانت ابنتها الكبرى نوارة شبيهة بها، تتقد ذكاء وحيوية، تقلد أمها في كل ما تفعله، وانخرطت هي الأخرى في الانتظار والشوق الى البشارة القادمة، وملأ قلبها الفتي الحزن على ما رأت عليه الجزيرة من العذابات، وظلت ترسم في مخيلتها تلك الصور واللوحات من حولها، تنقش في ذاكرتها الصامتة منها والمتحركة، ثم تصعد الى الكهف من حين لآخر وتغرق في العبادة والتأمل.

ما فتئت مريم تحث قبيلتها على استقبال النبي الخاتم بما يليق متى ظهر، مستعينة بنوارة التي لا تكاد تغادر محراب جرجيس شوقا الى مناجاة الرب وقراءة الكتاب المقدس.

فشت الوثنية حول القبيلة فشوا، وازدادت شراستها، وصار الحجر فوق البشر بمسافة بعيدة، وبدأ الكل يتحدث عن الفوضى والاقتتال والهجومات، وانصرمت السنون تباعا... فذاع خبر قدوم أبرهة الحبشي لهدم كعبة العرب، وحشد لهجومه ما حشد من الناس والحيوانات، وتناقل الكل الخبر، وملأ الفزع قلوبهم، وهدأت صراعاتهم قليلا وهم يترقبون ما يحدث بعد ذلك، كما أن تضرعهم لله لحماية بيته الذي بناه إبراهيم أول مرة قد ازداد، واحتاجوا الى إبرام العديد من الصفقات المادية والروحية مع الآلهة لتحقيق المزيد من الطمأنينة والأمن، وقام رجل من أسياد مكة اسمه عبد المطلب يحدث الناس، ويبقنهم أن الرب سيدبر حماية بيته، وستبقى أركانه قائمة اذا شاء ذلك، قام يفاوض عن مائة من الابل غصبها أبرهة الأشرم وجنوده ليستعيدها منه، فتعجب أبرهة أن سار مسار المفاوضات في

اتجاه استعادة الابل، ولم يسر في الدفاع عن الكعبة وصد الجنود عن هدمها!

كان عبد المطلب يقول أن للبيت ربا يحميه، وتبين أن هذا الحشد لا قبل لمكة به... ولكن أبرهة ظل متشبثا بحلمه، الحلم الذي جعل الجميع يهدأ ويترقب، الحلم الذي حفز في العقول حقيقة القوة الإلهية التي لا تقهر، الحلم الذي جعل تلك الأصنام المحيطة بالكعبة ترى معاول الهدم تتجه نحوها دون أن تستطيع مجرد الحركة من مكانها.تتفرج عليهم وهم يتمسحون ويستنجدون ويتبركون.

تناثرت الأيام على حبل الزمن، واخترق جيش أبرهة مسافات طويلة، وحين اقترب من مكة، كانت مريم في فراشها تنازع الموت المحتوم... إذ مرت الطيور الأبابيل فوق السماء المحيطة بها، نظرت الى أعدادها وأشكالها التى غطت المكان، فتحاملت على نفسها، ثم رفعت يدها المثقلة، وأمسكت بيد ابنتها نوارة وقالت وهي تدمع:
-أي بنيتي... أرى أن حدثا ما سيقع... أظن أن نبي الزمان قد ولد... لا تنسي يا بنيتي... سلمي عليه وكوني في الموعد...

الجمعة 21 شوال 1428 2نونبر 2007